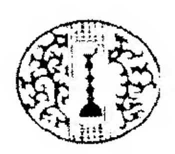
ثقافة الهند



المجلس الهندي للعلاقات الثقافية

ISSN 0970-3713

مجلة علمية ثقافية ، جامعة، فصلية

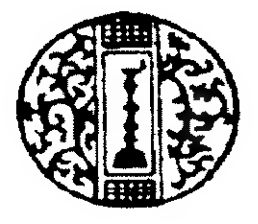
ثــقــافة الــهنــد

المجلد ٥٣ العدد ١

٢٠٠٢م

رئيس التحرير

س ضياء الحسن الندوي



المجلس الهندي للعلاقات الثقافية

ازاد بهاون، نيو دلهي

الهند

إن المجلس الهندي للعلاقات الثقافية منظمة حرة لوزارة الشؤون الخارجية للحكومة الهندية أنشئت عام ١٩٥٠م لإنشاء و تنمية العلاقات الثقافية و التفاهم المتبادل بين الهند و البلدان الأخرى، و ضمن برنامج مطبوعاته ينشر المجلس، بين ما ينشر، عدة مجلات، ففي العربية "ثقافة الهند" و في الإنكليزية "Indian Horizons" "Africa Quarterly" و في الفرنسية "Rencontre Avec L'Inde" و في الأسبانية "Papeles de la India" وفي الألمانية "Indien in der Gegenwart" في الهندية "Gagananchal" و كلها يصدر أربع مرات في السنة.

و المراسلات المتعلقة بالاشتراك و دفع الثمن و بشؤون الطباعة و النشر توجه إلى:

The Programme Director (Pub.)
Indian Council for Cultural Relations
Azad Bhavan , Indraprastha Estate
New Delhi-110002 (India)

بدل الاشتراك للمجلات الصادرة عن المجلس كالأتي:

ثمن النسخة	الاشتراك السنوي	الاشتراك ثلاثة أعوام
٢٥ روبية	١٠٠ روبية	٢٥٠ روبية
١٠ دولارات	٤٠ دولارا	١٠٠ دولار
٤ جنيهات	١٦ جنيها	٤٠ جنيها

نشرها و طبعها المدير العام للمجلس الهندي للعلاقات الثقافية - ازاد بوان، نيودلهي، الهند

طبعت في مطبعة شيبرا ، دلهي- ١١٠٠٩٢

مجلة ثقافة الهند الفصلية

المجلد ٥٣ العدد ١
٢٠٠٢م

محتويات العدد

كلمة التحرير

الهند بلد شاسع الأطراف واسع الأكناف يمتاز بألوان متنوعة من التقاليد و المعتقدات و اللغات و الحضارات، لا زالت تجذب إليها الأنظار و القلوب منذ القدم فقد أم حماها صنوف من الأجيال القادمة من الشرق و الغرب و من الشمال و الجنوب على مدى التاريخ و على مر العصور و إنها مع حضارتها العريقة، ذات ثروة غنية أيضا تكمن في طيات أراضيها الخصبة معادن غالية جدا من الذهب و الفضة و الحديد و النحاس و الأبرق و القصدير والزيت و الغاز الطبيعي و ما إلى ذلك.

من أجل ذلك انجذب إليها الأجانب من السياح و التجار والمغرمين بالطبيعة و مشاهدها و طلبة العلم و الأساتيذ العلماء، كما قصدها المغامرون المهاجمون ممن قتلوا و نهبوا و سفكوا دماء الأبرياء بغير حق، و قد سجل التاريخ معظم هؤلاء القادمين النازلين في ربوع شبه القارة الهندية بشيء من تفاصيل ما أخذوا و ما أعطوا لهذه البلاد السعيدة بالجمال الطبيعي و الكمال الصناعي و ما تركوا من آثار نيرة تشهد على براعتهم الفائقة ونواياهم الخالصة في ضوء النهار و ظلام الليل على السواء.

خصص بديع السماوات و الأرض التربة الهندية بمزايا عجيبة نادرة من سعة قلب و رحابة صدر فمازالت ترحب بكل من ورد فيها طالبا قراها و سائلا إيواءها و قالت له بلسان الحال.

يا ضيفنا لو جئتنا لوجدتنا

نحن الضيوف و أنت رب المنزل

فعرف بعض منهم لها هذا الجميل وقدروا من طرفها هذا البر حق التقدير و قاموا بمجازاة هذا الإحسان بإسهامهم في تطوير البلاد و ترقيتها و استخراج كنوزها الدفينة في بطن الأرض ثم استغلالها في مصلحة المواطنين من غير تمييز بين الأبيض والأسود أو الأصيل و الدخيل، و بعض آخر لم يراعوا حقها ولم يقوموا استضافتها أية قيمة، بل إما اشتغلوا بالسلب و النهب و تحقير المواطنين الحقيقيين و إخراجهم من ديارهم ظلما و عدوانا، أوحملوا معهم كلما عثروا عليه من شئ ذي قيمة في طريق العودة إلى مواطنهم.

إن الذين استوطنوا هذه البلاد واثروا تربتها مهدا لهم و لحدا و ضحوا من أجل كرامتها و استقلالها نفوسهم و نفائسهم و أسدوا إليها كل خير و أضافوا إلى جبينها أكاليل العز و الشرف الخالد وشاركوا مع إخوانهم المواطنين الآمال و الآلام و الأفراح و الأتراح و صاروا جزءا لا يتجزأ لكل ذرة من هذه التربة الخصبة. إنهم يستحقون كل إعجاب و تقدير من كل من يقيم للقيم الإنسانية وزنا و يعير للكرامة الآدمية أدنى أهمية لأنهم كشفوا لهذه البلاد و لأول مرة

كلمة التحرير

في ذاكرة التاريخ عما لديهم من رسالة الإنسانية السرمدية التي تبتني على السوية البشرية الكاملة و حرية الفرد و انطلاقه من عبودية الإنسان للإنسان و استقلاله من كافة الأوهام و الخرافات التي لم توافق و مقتضيات المجتمع البشري أبدا في مجاهل التاريخ فضلا عن متطلبات القرن الحادي و العشرين.

س. ضياء الحسن الندوي

فيلسوف الهند العظيم : اربندو كهوش

بقلم: د/ محمد ثناء الله الندوي

اربندو كهوش من الشخصيات العبقرية الهندية في الفلسفة و الأدب و التي أشرقت بها الهند في تاريخها الجديد إبان حركة تحرير البلد من براثن الاستعمار البريطاني : عملاق من عمالقة الأدب و فيلسوف من كبار الفلاسفة و ثوري من أعاظم الثوار، يفتخر به الهنديون و يعتز به الأدب و الفلسفة على الصعيد العالمي، فيلسوف بحث عن الحق في أعماق نفسه وسبر أغوار الذات الإنسانية و اطلع على أسرارها و أسرار أسرارها، وكشف اللثام عن "الحياة الإلهية" و قرض "ساوتري" و هي أطول قصيدة في العالم بلا نزاع، و برع في لغات تطول قائمتها، منها : اللاتينية و اليونانية و الإنكليزية و الإيطالية و الفرنسية و الالمانية، بجنب اللغة السنسكريتية و الهندية و لغته الأم : البنغالية، و لا شك فانه يعد من أساتذة العالم في مجال الفلسفة و بخصوص في "اليوجا" النظري و العملي و الاجتماعي.

مولده و منشاءه و تعليمه:

ولد اربندو كهوش في الخامس عشر من شهر أغسطس عام ١٨٧٢م في مدينة كلكته في ولاية بنجاله الغربية الهندية من أب طبيب جراح هو الدكتور كرشنا دهان كهوش، والمولع بالثقافة الغربية أشد الولع، ومن أم تحدرت من سلالة رشي راج نرائن بوس، رئيس "برهمو سماج" الشهير في كلكته آنذاك، و كان له ثلاثة أخوة و شقيقة و كان الأب مسئولا رئيسيا عن تربية أولاده، و لأجل أنه كان مولعا أشد الولع بالثقافة الإنكليزية فلم يشاء أن يتأثر أولاده في نشأتهم بالثقافة الهندية، و تعود الصغار للتكلم باللغة الإنكليزية في بيتهم، و في عام ١٨٧٧م التحق اربندو كهوش بمدرسة "لوريتو" الشهيرة في مدينة دار جيلنغ، و هي مدرسة يتعلم فيها أبناء الأمراء و الحكام و الطبقة الأرستقراطية في الهند، أسسها الإنجليز لتعليم أبناءهم أنفسهم في الهند، و بعد عامين - أي في ١٨٧٩م- سافر أبوه إلى انجلترة و ألحقه بعائلة دريويت في مدينة مان شستر، و كان السيد دريويت يتقن اللغة اللاتينية، فبدأ يعلم اربندو الصغير هذه اللغة، و في عام ١٨٨٥ انتقل اربندو إلى لندن مؤدعا حضن الأسرة الديوريتية الهرمة، و كان ممنوعا على اربندو و أخيه أن يختلطا بالعائلات الهندية في انجلترة، حتى لا تتأثر تربيتهم بازدواجية ثقافية، أما ما يتعلق بالديانة فكان أبوه قد رخص لأولاده أن يختاروا أي ديانة أرادوها بعد اكتمال ثقافتهم و نضج تفكيرهم العام.

وفي عام ١٨٨٤م التحق اربندو بمدرسة القديس بال في لندن، وكان قد تعلم اللغة اللاتينية من قبل، و تأثر بذلك أساتذته، فاكبوا على تعليمه اللغة اليونانية، و مكث اربندو في هذه المدرسة خمسة أعوام برز فيها طالبا

ممتازا في جميع المواد، و بخصوص في الأدب الإنكليزي و التاريخ و أثناء إقامته في مدينة مان شتر كان اربندو قد يقرض الشعر، و نشرت بعض قصائده في المجلات العائلية في مدينة مان شستر، و هو ابن عشر سنين وكان الدكتور والكر من أساتذته في مدرسة القديس بال في لندن، من غريب الأمر أن اربندو نجده يواجه مشكلات مالية، لأن أباه أهمله بعد عودته إلى الهند، و لكن الحظ ساعده، فنال منحة دراسية لتعلم الكلاسيكيات في كلية الملك بجامعة كيمبردج، بجنب مساعدة مالية أخرى.

و أثناء إقامته في مدرسة القديس بال في لندن أكب اربندو على دراسة الكلاسيكيات و اللغة الإنجليزية، و بعد ذلك تحول إلى اللغات الفرنسية و الإيطالية و الألمانية، و كان طالبا مجدا نال درجة ممتاز في جميع المواد، و أبوه كان يتمنى من صميم قلبه أن ينجح ابنه في امتحان الوظيفة المدنية الهندية (I.A.S.) إلا أن اربندو كهوش كان يكره أن يخدم الاستعمار البريطاني بالانضمام إلى سلك الحكم بعد هذا الامتحان، فجلس في الامتحان على مضض، إرضاء أمنية أبيه، و نال درجة ممتاز في جميع المواد الكتابية، و كان اسمه في رتبة أحد عشر في قائمة الناجحين، و لكنه رسب في الفروسية، أو أنه دبر هذه الحيلة لكئ يرسب(١).

كان اربندو يبغض الاستعمار البريطاني، فكيف ينظم إلى سلك حكمه؟ و كان قد أجمع أن يخدم حركة تحرير بلده، و أثناء أقامته في جامعة كيمبردج شغل منصب الأمين للمجلس الهندي في زمن خاص، و كان يشارك في مباحثات المجلس، و كان ثوريا في نقده للحكم الإنجليزي في الهند، و كان مؤيدا لسياسة الوطنية المغالية.

خدماته الإدارية و السياسية:

وبعد رسوبه في امتحان "I.A.S." عرفه السيد جيمس كوتن بصاحب إمارة بروده الجيكوارد سيري سايا جي راو، و أدى ذلك إلى توظيفه في إمارة بروده، وفي ديسمبر ١٨٩٢م غادر اربندو انجلترة، و توجه إلى الهند في باخرة اسمها "قرطاجه" و وصل إلى بومباني في فبراير عام ١٨٩٣م، و مات أبوه قبل أن يصل اربندو إلى الهند، و يقال إن نباء غرق الباخرة الكاذب هو الذي سبب موت أبيه.

التحق اربندو ببلاط بروده أثر عودته إلى الهند عام ١٨٩٣م و كان اعل همه آنذاك أن يسلح نفسه بسلاح الحكمة و الثقافة الهندية، فعكف على تعلم اللغتين السنسكريتية و البنغالية حتى يستطيع أن يسبر أغوار الفلسفة الهندية من مصادرها الرئيسية، و على أنه أدى خدمات إدارية جليلة في بلاط بروده، إلا أنه كان رجل العلم و الفلسفة داخل نفسه، فعين محاضر اللغة الفرنسية في كلية بروده الملكية، ثم عين أستاذا للأدب الإنكليزي فيها، و أصبح نائب عميد الكلية بعد ذلك، و في مدينة برودة تزوج بالسيدة مري نالبني في أبريل عام ١٩٠١م، إلا أن نشاطاطه السياسية لم تسمح له بأن يتمتع بحياة عائلية سعيدة، و كان يشعر بأن حركة تحرير الهند " المجلس الوطني الهندي" في حاجة إلى تنظيم جديد، فدبج سلسلة من المقالات في مجلة "اندوبراكاش" (Indo Prakash) و عنوانها بـ"مصابيح جديدة من مصابيح قديمة" و فيها وجه نقدا لاذعا لسياسة المجلس الوطني الهندي، وفي عام ١٩٠٦م ودع اربندو خدمة ولاية برودة، و أصبح عميدا للكلية الوطنية التي تم تأسيسها آنذاك (و هذه الكلية تحولت إلى جامعة يادو بور الآن) في مدينة كلكته، وهنا أكب على إدارة المجلة الأسبوعية "وندي ماترم" و كانت

هذه النشاطات على حساب حالته الصحية، و قام بأسفار عديدة في مختلف إنهاء الهند، و خاطب المجالس و المؤتمرات، و اعتقل باتهام تفجير القنبلة في علي بور في ٤ من شهر مايو عام ١٩٠٨م و أطلق عن سراحه و كان جترنجن داس الشهير محاميه، و كان ذلك في ٣٠ من مايو ١٩٠٩م ويلاحظ القارئ تغييرا شكليا في تفكيره الفلسفي و السياسي قبل اعتقاله و بعده، وكان ثوريا مغاليا قبل الاعتقال، و لكنه بعد خروجه من السجن تحول إلى شخصية هادئة، إلى فيلسوف و يوجي (Yogi) بله الثوري السياسي، و بدأ يحرر مجلتين أسبوعيتين: مجلة "كارما يوجي" بالإنجليزية و نجلة "دهارما" باللغة البنجالية، و دبج فيها مقالات حول الوطن و الفلسفة و العلم و الأدب، و كان الإنجليز يرصدون لما يكتبه اربندو و يفعله، و لم يكونوا يجهلون تأثيره على الجماهير أو يقللون من شأنه، فأرادوا أن ينفوه إلى مكان آخر(٢)،و ألقى في روع اربندو أن يغادر الهند التي ... كمها الاستعمار البريطاني، و يتوجه إلى "جندر ناكور" التي كانت تحت سيطرة الفرنسيين آنذاك، فغادر كلكته و وصل إلى جندر ناكور في فبراير عام ١٩١٠م.

هذه نهاية المطاف لمشاركاته الفعالة في انسياسة، و هنا نجده يلبي دعوة الغوص في أعماق النفس و الحق و الكون، فسبر أغوار حكمة النفس و الديانة و الفلسفة و ظواهر الكون، و هذا لا يعني أن أربندو تغاضي المبدأ القائل بضرورة الحرية للوطن، بل نجده يؤكد أن الحرية لازمة للتطور الإنساني الروحي، وبذلك تصبح الحرية جزءا من الطبيعة، و يبحث اربندو عن أصول هذا المبدأ في التاريخ الفلسفي الإنساني العام، و بخصوص في تاريخ الهند الفلسفي، أما مدينة جندر ناكور (باندي شيري) التي لجأ إليها

فيلسوفنا فهو نفسه يصفها بهذه الكلمات : " هي ملجأي الذي آوى إليه، وكعبة تعبداتي، لا من طراز المشعوذين، بل من صميم اختراعاتي(٣) ".

و في باندي شيري أكب اربندو على القراءات و الكتابات الفلسفية، و في ٢٩ من مارس ١٩١٤م التقى السيد بال ريتشارد و حرمته بفيلسوفنا وتأثرا به كبيرا، و السيدة بال ريتشارد شغلت بعد "اما" (مديرة) لزاوية اربندو، و هنا قام اربندو بإصدار مجلة "آريا " الشهرية، و ظهر عددها الأول في ١٥ من أغسطس ١٩١٤م و صدر عددها الأخير في ١٩٢١م، وفى هذه المجلة نجد معظم أعمال اربندو في الفلسفة و الأدب و الشعر.

وفي اليوم الرابع و العشرين من شهر نوفمبر عام ١٩٢٣م نجح فيلسوفنا في اهباط "الشعور ما فوق العقل" إلى الأرض، و تحول هذا اليوم إلى عيد احتفال للمنتسبين إليه، يحتفلون به كل عام باهتمام بالغ، (فوق العقل اتصال بين العقل و العقل العظيم في فلسفة اربندو) و من هنا انقطع فيلسوفنا عن العالم و أكب على الارتياض الشديد و بدأ ينزل " شعور الحق فوق العقل" إلى الأرض، و وهب أوقاته كلها للكتابات في الفلسفة و اليوجا، وحصلت الهند على استقلالها من الإنجليز في ١٥ من أغسطس عام ١٩٤٧م فاعتبر اربندو ذلك مولدا جديدا للبلد، و أعرب من أماله للتطور الروحي له كما أكد أن عظمة البلد في المستقبل سوف تشغل قيادة العالم الروحية.

مات فيلسوفنا في الخامس من ديسمبر عام ١٩٥٠م و ابنه رئيس الهند الدكتور راجندر براشاد بقوله : "الهند تعبده و تجعل من ذكرياته ضريحا كأحد أنبياءها (٤) "

كتبه و مؤلفاته:

اربندو كهوش كاتب عظيم و خلف لنا عددا كبيرا من الكتب والمؤلفات في مختلف العلوم و الفنون، و يدرج في التالي قائمة لما أنتجه هذا العقل الكبير من الكتب و المؤلفات و أثرى به مكتبة العلم الإنساني:

١- اربندو على نفسه و على الأم:

Aurobindo on Himself and on the Mother

٢- حول الفيدا و الاوبنيشاد و الجيتا:

1. On The Veda
2. Hymns to the Mystic Fire
3. Isha Upnishad
4. Kena Upnishad
5. Eight Upnishads
6. Essays on the Gita

٣- حول الفلسفة و اليوجا:

1. The Life Devine
2. The Glossary of Sanskrit Terms in the Life Devine
3. Ideas and Progress

4. The Superman

5. Evolution

6. Thoughts and Aphorisms

7. The Supramental Manifestation upon Earth

8. The Problem of Rebirth

9. The Mother

10. The Yoga and its Objectives

11. On Yoga (Vol. I) The Synthesis of Yoga

12. On Yoga (Vol. II)

13. The Riddle of this world

14. The Hour of God

15. Letters of Sri Aurobindo (VI series)

16. Letters of Sri Aurbindo on the Mother

17. Letters of Aurobindo (Translated from Bengali)

٤- حول الوطن:

1. Foundations of Indian Culture

2. Bankim Chandra Chatterjee

3. Bankim, Tilak-dayananda

4. The Renaissance in India

5. The Ideal of the Karmayogi
6. A System of National Education
7. The National Value of Art
8. The Spirit and Form of Indian Polity
9. The Brain of India
10. Uttarpara Speech
11. The Doctrine of Passive Resistence
12. Siri Aurobindo on India
13. Sri Aurobindo and The Mother on Education

٥- الإنسانية و العولمة:

1. Message of Sri Aurobindo and The Mother (2 series)
2. After the War
3. The Human Cycle
4. The Ideal of Human Unity
5. War and Self-determination

٦- الأدب:

1. Viyas and Valmiki
2. Kalidasa (2 series)

3. Vies and Reviews
4. Life- Literature- Yoga
5. The Future Poetry
6. Conversation of The Dead
7. The Phantom Hour

٧- الشعر و المسرح :

1. Savitri
2. Collected Poems and Plays
3. Poems
4. Vikramorsavie or The Hero and the Nymph
5. The Century of Life
6. Love and Death
7. Baji Prabhou
8. Poems, past and Present
9. Perseus
10. Rodogune
11. The Viziers of Bassora
12. Last Poems
13. More Poems

14. Songs of Vidyapati

15. Poems from Bengal

16. Ilion

17. Eric

٨- فذلكات:

1. Words of Sri Aurobindo

2. Education

3. Integral Yoga

4. Sri Aurbindo Circle No. 6 " The Divine Personality"

تجارب اربندو اليوجية و الروحية:

بدأ فيلسوفنا يمارس رياضة "برانيا" (Pranya) الشاقة في عام ١٩٠٤م حيث يستغرق العمل خمس أو ست ساعات يوميا، و هذا العمل يركز حول ضبط التنفس المؤدي إلى ازدياد الأنشطة الذهنية و الذاكرة القوية الحادة، و في عام ١٩٠٦م بدأ يمارس الرياضة الروحية "سادهنا" التي تؤهل الإنسان لأن يخلى الذهن من جميع الأنشطة الذهنية و " يحقق الإنسان شعور البراهمن (الحق) الساكت، و من هنا يبدأ يفكر من فوق الذهن. (٥) "

و من هنا استغنى فيلسوفنا عن جميع أنواع القيادات الخارجية للإنسان، حقا أن الوصول إلى هذه الدرجة صعب للغاية، يقول اربندو:

" بعد خمسة عشر عاما بدأت اصعد إلى الدرجات الثلاث البدائية من حلقة " فوق العقل" و أحاول أن اركز تحركاتي كلها حول هذه النقطة، و حينما يكتمل "سدهي" (Sidhi) فأن الإله يرزق الأخرين "سدهي فوق العقل" وذلك بواسطتي أنا شخصيا من غير جهد مضني، و بذلك يبدأ عملي الحقيقي(٦)".

ما الذي حصل عليه اربندو يوم ٢٤ نوفمبر عام ١٩٢٦م العظيم؟ لنستمع إلى ما يقوله هو نفسه بهذا الخصوص : " هذا يوم ينزل فيه " كرشنا" إلى الماديات، كرشنا ليس " النور ما وراء العقل" ، نزول كرشنا إنما يعني نزول الإله فوق العقل تمهيدا سبيل نزول العقل العظيم (٧)."

اربندو الشاعر و الأديب :

بدأ اربندو يقرض الشعر و هو صغير، و أطول و أعظم أعماله الشعرية هو "ساوتري" باللغة الإنجليزية، و هذه أطول قصيدة في العالم بلا نزاع، و هذه القصيدة تعبر لنا عن آراءه في الحياة و الانتصار على الموت، أن قصيدة ساوتري متأصلة الجذور بشخصيات السيدة "ساوتري" و زوجها "ستياوان" الميثالوجية في الهند، و قصيدة أخرى " الحب والموت" تمثل نفس الموضوع، و قصائد "في ضوء القمر" و طائر النار" و " وردة الإلهية" و " العفاريت" و "انتصار الحياة" و " الحياة في السماوات" تشرح لنا معالم الحياة الفاضلة، و مجموعة " القصائد الأخيرة" تضم قصائد فلسفية مثل " التطور" و " غير الشعور".

كان اربندو كاتبا كبيرا، و تحيط كتاباته موضوعات منوعة مثل الكتب الدينية و الفلسفة و اليوجا و السياسة و الوطن و الأدب و أكبر أعماله الفلسفية هو : " الحياة الألهية" (The Life of Divine) و هذا الكتاب يمثل

مكانة اربندو الرفيعة في الفلسفة، و كتاب آخر له هو (The Synthesis of Yoga) يعالج التطبيقات العملية لنظرياته الفلسفية، و ذلك لكي يتمكن الإنسان من معرفة الحياة المثلى في هذا العالم، و في هذا الكتاب يذكر لنا فيلسوفنا ثلاثة أنواع لليوجا : يوجا التعبد و الولوع، و يوجا المعرفة و يوجا العمل و يجعل من هذا الثالوث نظاماً متكاملا، و له "مقالات حول جيتا" في تصور الديانة و المجتمع كما ورد في كتب البراهمة الهندوكية الدينية، وكتابه " المجتمع الإنساني الأمثل" يؤكد لنا تأصيل مبدأه الفلسفي. كما يشرح لنا فيلسوفنا تطور الثقافات و المجتمعات و ازدهارها و انحطاطها في كتابه "نفسية التطور الاجتماعي" و له كتاب " دعائم الثقافة الهندية" الذي يدافع عن ثقافة الهند في وجه الاستعمار ، و له "رسائل و تعليقات إلى الأم" و له كتب أخرى مهمة في موضوعات منوعة كما نجدها في قائمة مؤلفاته.

آراءه الفلسفية:

فلسفة اربندو تفند العقلانية في التفكير الفلسفي التي نجد مدارسها في الشرق و الغرب و في العصور القديمة و العصر الحديث على السواء، حقا إن المعرفة ضرورية للإنسان و لكن كيف الوصول إلى المعرفة؟ و ما هي أنواعها؟ التفكير الفلسفي يقسم المعرفة قسمين : معرفة حسية و معرفة وجدانية، مدرسة التجريبية في الفلسفة تؤكد الحس و المحسوس، و تفند العقلانية، و مدرسة العقلانية تعارض التجريبية و تتخذ منهج الاستدلال المنطقي، أما مدرسة الوجدانية فهي تؤكد المعرفة المباشرة، المتحررة من أي معونة من التجربة أو العقل، و تقول بان الوجدان هو الذريعة الوحيدة للمعرفة : معرفة النفس و معرفة الحق، إن معرفة الإله و معرفة المبادئ

الخلقية مستنتقاه من المبدأ الوجداني، و هذا المبدأ هو مشوار الصوفية والغنوصيين.

يؤكد لنا اريندو أن تجاربنا الحسية توفر لنا خام المواد للمعرفة، وهذه التجارب لا قيمة لها إلا إذا صاحبت "شعور - ذهن" أو " مانس" باللغة السنسكريتية (٨) و " مانس" هذا يعتبر الحس السادس في الفلسفة الهندية، و هذا الذي لنا ارتسامات الحواس الخمس الظاهرة، ويرى اربندو انه من الممكن بل من الطبيعي أن يمارس الذهن عمله من غير واسطة الحواس الخمس الطاهرة المادية، و حتى كتاب " جيتا" المقدس لدى الهندوس يؤكد أن " هناك حقائق وراء الإدراك الحسي التي يمكن ضبطها عبر العقل (٩) " العقل ذريعة شرعية للمعرفة، و هذا لا شك فيه، و بذلك نحصل على الرفاهة و القوة في الحياة، بل هو همزة وصل بين حقائق العالم الخارجي و تضاعيف الحقائق المكنونة إلا أنه من الخطر أن نولي العقل اهتماما زائدا و أن نتخذه الذريعة الوحيدة للمعرفة، العقل لا يستطيع أن يحيط بحقيقة الحقائق، إن أوربا و اكبت العقلانية و أهملت القيم الروحية، وهذا أدى إلى نوع من اللاإدارية (Agnosticism) بوجه صريح أومكبوت(١٠) "

يرى اربندو أن حقيقة الحقائق لا تدرك إلا بالوجدان، و مبدأ المعرفة الوجدانية هو الهوية الفعالة للعاقل و المعقول التي هي واحدة و إلا ازدواجية فيها (١١).

يعتبر فيلسوفنا الوجدان شيئا يقترب من تجاربنا اليومية، و ليس شيئا ما فوق الإنسان، فمعرفة ذواتنا و أنفسنا رهينة لمنهج الوجدان، و هذا كما قال شاعر الهند الكبير العلامة الدكتور محمد إقبال:

در بود و نبود من انديشه كمان ها داشت

اذ عشق هويدا شد اين نكته كه من هستم (١٢)

(الظن لم يستطع أن يكون متأكدا : هل أنا موجودا أم لا؟ و لكن العشق (القلب، الوجدان) أجاب متأكدا أنني موجود حقا)

بل يعتبره فيلسوفنا نوعا أرقى من العقل، و في هذا المبدأ يلتقي فيلسوفنا بالشاعر الكبير محمد إقبال (١٣).

الوجدان ينظر إلى الأشياء باعتبارها كلا، و لا جزءا، و يجعلها وحدة لا تتجزأ، أما العقل، فهو يحلل و يجزء،ويوزع بين الإيجاب والسلب و الجزئي و الكلي، و بذلك فان الوحدة العضوية يصبح مفقودة، العقل والذهن وسائط بين أنشطة الحياة و المعرفة الوجدانية (١٤).

على أن هناك صلة وثيقة بين العقل و الوجدان، فالعقل في مسيرته في ساحة الوجدان لا يبقى عقلا محضا و إنما يتسنم ببعض ميزات الوجدان(١٥).

الوظيفة الحقيقة للعقل هي أن يرأس العمل، إذ هو غير متأهل للتفهم الحقيقي للحياة و الحقيقة، العقل يدور حول المادة، و الوجدان يحيط بالموضوع (الكائن الداخلي) فبينما يقف العقل عند بوابة الحقيقة، الوجدان يقتحمها (١٦) و هذا ما قاله الدكتور إقبال في شعره :

عقل در كوهي شكافي مي كند

يا بكرد او طوافي مي كند

عشـق جـون بـا زيركـي همـبر شـود

نقشـبند عـالم ديـكر شـود(١٧)

(العقل يتقر على الصخر و ينحت الجبال، أو يطوف حولها، و لكـن القلب يفتح الافاق، و يسبر الأغوار و يطلع على بواطن الأشياء)

فيؤكد ضرورة التوحيد بين معرفة الكون المادي الذي حصـل عليـه عبر العقل و بين معرفة الحقيقة الكبرى التي لا سبيل إليها إلا الوجدان(١٨).

و الآن يتسأل المرء : هل المعرفة الوجدانية في حاجة إلى محاسبة؟ أو يطلق حبلها على غاربها؟ يرى اربندو أن الاستدلال المنطقي لا يمكن أن يحكم في قضية الوجدان، إذ من الطبعي أن الأسفل لا يكون الحاكم للأعلـى، نعم، يجوز المقابلة بيـن نوعين من الوجـدان : عـالي و متوسط، أو عميق وغير عميق (١٩). إذ أنه من الضروري إن نعقلن (نجعل عقلانيا) التجربـة الروحية كهمزة وصل بين الروح و العقل، إذ بدون ذلك لا يمكن التمييز بين الوجدان المحض و بين صنوه الذيلم يكتمل أو لم ينضـج بعد، أو أنـه شبه الدليل الذي يردى إلى دار البوار... (٢٠)

الاستدلال على وجود الله:

أما الاستدلال على وجود الله فيسلك اربنـدو مسلك الوجـدان، إذ أن ذلك غير مجال العقل و التجربة، العقل لا يستطيع أن يستدل على وجـود الله إلا عن طريـق المرافقـات الروحيـة، و هـذه المرافقـات الروحيـة داخلـة فـي باطن الماديات و الظواهر الطبيعية (٢١) و يرى أن حقيقة الحقـائق واحـدة،

و الكتب الفيدية الهندية تحيل إليها في أمثال كلمات هي: الواحد، الأحد، غير المتناهي، غير المتجزئ و غيرها من الكلمات (٢٢).

يعتبر اربندو الله ذاتا، و يقول : " هناك رب واحد و ذات واحدة، والكثرة هي تمثيلاته (٢٣) و هذه الذات هي فوق مقولات الوجود و العدم الفلسفية، و الله وحده حقيقة فوق الماديات، و هو وحده مصدر تنوع الأشكال في حزا العالم، و الذوات الإنسانية الفردية أيضا حقيقة و مركز للابداع الإلهي، و اجتماعية الأفراد هي ساحة العمل و شرطه، و الله خلق الإنسان على صورته، و دخل جسد الإنسان في صورة الذات و الانا،وهناك تجانس بين ذات الإنسان و ذات الله (٢٤) و أهمية الذات الإنسانية تزداد في مواجهة حقائق الكون و الحياة، فهي تقل أهمية من الروح أو الذات الكونية، أنها من أزهار السرمدية المتفتحة (٢٥) و بذلك يحتل الإنسان أهمية قصوى في فلسفة اربندو ،ولا بد لهذا الإنسان أن يمثل دوره الإبداعي والبناء العظيم في هذا الكون.

و في نهاية المطاف يجب أن نشير إلى فيلسوف الهند العظيم في تفنيده الاستدلال العقلي على وجود الله يقترب كثيرا من فيلسوف ألمانيا الكبير عما نوئيل كانط (Kant 1724-1804)، كما نجد أوجه تماثل بين آراء اربندو و الشاعر الإسلامي الكبير محمد إقبال (١٨٧٣-١٩٣٨م) في الذات الإنسانية و دورها البناء في هذا العالم.

الهوامش:

١- أنظر : Sri Aurobindo on Himself and The Mother
(Sri Auribindo Ashram, Pondicherry) p.12

٢- راجع: Bhuvaneshwarnath Mishra, Shri Arvind - Charitamrit
(Hindi) Pondicherry, 1963 P. 116

٣ A.V. Purani, The Life of Sri Aurobindo (Pondichery, 1960) p.
157

٤- انظر:

R.R. Diwakar, Mahayogi (Bhartiya Vidya Bhavan, Bombay 1954),
pp. 98-99

٥-انظر : بوراني، المصدر السابق ، ١٢٨

٦- المصدر نفسه، ص ٢٤٠-٢٤١

٧-المصدر نفسه، ص ٢٤٧

٨-راجع : اربندو كهوش : The Life Devine, Vol. I, P. 94

٩- الإحالة إلى : Gita VI, 2

١٠-اربندو كهوش :On Yoga 11 Vol.I, P. 169

١١- اربندو كهوش :The Life of Divine (Pondicherry)1960, pp.78-79

١٢- انظر: الدكتور محمد إقبال: بيام مشرق، ص ١٧٩

١٣- راجع : الدكتور محمد إقبال :The Reconstruction of Religious
Thought in Islam, 1935, p.3

١٤- اربندو كهوش : الحياة الالهية، ص ٧٩

١٥- المصدر نفسه، ص ٥٨

١٦- المصدر نفسه، ص ٥٩

١٧- انظر : الدكتور أحمد إقبال : جاويد نامه، ص ١٧،٧١

١٨- اربندو كهوش : Evolution p. 34

فيلسوف الهند العظيم : اربندو كهوش

١٩- اربندو كهوش : الحياة الإلهية، ص ٨٣

٢٠- المصدر نفسه، الجزء الثاني، ص ٨٩٤

٢١- المصدر نفسه، الجزء الأول، ص ٢٦، ٢٧، ٢٨

٢٢- المصدر نفسه، ص ٤٠

٢٣- المصدر نفسه، ص ٤٨

٢٤- المصدر نفسه، ص ٢٢-٢٣

٢٥- المصدر نفسه، الجزء الثاني، ص ٧٠٤

الآداب العالمية تقطف ثمار الحكمة الهندية

بقلم:وليد كاصد الزيدي

تعرف دائرة المعارف البريطانية " الحكمة" بأنها " نوع من الرسائل الأخلاقية التي تظهر طبيعة الخير، و تتكفل بأخبار الطائفة التي كتبت من أجلها عن الوسيلة التي يتسنى بها تحقيق الخير".

وبلاد الهند التي تمتلك ثراء ثقافيا ثرا - نظرا لحضارتها العريقة ذات الجذور التاريخية الضاربة في أعماق الزمن، قد ساهمت مع الأمم الأخرى في رفد الإنسانية بثمار الثقافة الأصيلة و في مقدمتها ثمار الحكمة الهندية.

وفي الأدب الهندي كثيرا من القصائد و الملاحم، و القصص والمسرحيات مثل ملحمة (المهابهارتا) التي أعتبرها النقاد أعظم آية من آيات الجمال التي أنتجتها آسيا و قال عنها (اليوت) : " إنها قصيدة أعظم من الإلياذة و قد كتبها مائة شاعر و ترنم بها ألف منشد، و لست أدعو إلى ترجمة هذه القصيدة، إنما أقول : أننا لابد أن نلم بهذا التراث الهندي الكبير

بعض الإلمام، لأن الرجل العادي في الهند يحفظ الكثير من أبيات هذه الملحمة. و الأدب الهندي على العموم حافل بالرومانسية العميقة و نحن بدراستنا هذا الأدب نغوص في أعماق الروح و نقترب من سرها و نحس برهبتها و نجلو الكثير من أسرار الطبيعة و نعيش في حضنها كما يعيش الأطفال الأبرياء في حضن أمهم الرووْم.

في حين نجد أن كثيرا من الكتاب الغربيين قد أغفلوا ما تمتلكه الهند من ثقافة إنسانية تحمل بين طياتها بذور السلام و المحبة التي تصبو إلى نشرها بين جميع الشعوب، في ذلك يرد الزعيم الراحل "نهرو" بصورة غير مباشرة على أولئك الذين أرادوا تشويه مفهوم الحكمة الهندية بقوله : "ليست عقيدة سرية و لا هي معرفة خفية تلك التي أبقت الهند حية، باقية على مر العصور الطويلة، و إنما هي نزعة إنسانية رقيقة، و ثقافة متنوعة متسامحة، وفهم عميق للحياة و مسالكها الخفية، هي التي جعلت حيويتها الفياضة تتدفق من عصر إلى عصر في المجالات الجلية في الأدب و الفن."

أعلام الأدب الغربي و الحكمة الهندية:

لقد أغنت الثقافة الهندية الآداب العالمية بالأساطير و القصص التي تندرج في ثناياها مفاهيم الحكمة و الوعظ و النصيحة، و أستلهم منها كبار أدباء العالم كثيرا من مضامينها و دروسها ليوظفوها في كتاباتهم و أشعارهم.

فها هو الأديب الروسي الكبير - تولستوي - (١٨٨٣- ١٩٤٥) يحاول أن يجعل الثقافة الروحية الهندية، شعبية في روسيا سعيا منه إلى خلق عالم أفضل، كما أنه يبحث في قيم الخير و العدالة التي تضمنتها الأعمال الفلسفية الهندية القديمة و المعاصرة لغرض فرض القيم الأخلاقية

في بلاده، فيما حاول أن يحل لغز الماهية الروحية للإنسان و قدره و سر وجوده من خلال الحكمة الهندية.

و حين ننتقل إلى علم آخر من أعلام الأدب العالمي، و هو الشاعر والأديب الكبير - غوته - (١٧٤٩- ١٨٣٢) نجده قد أتجه إلى قطف ثمار الحكمة الهندية، بعد أن حفزه إلى ذلك صديقه الكبير (هردر) ليرد مناهل الثقافة الآرية.

فقد قرأ ترجمة ألمانية عام ١٦٨١ للملحمة الهندية الكبرى "مهابهارتا" (Mahabharata) وقد أستوقف "غوته" منها قصة صاغ منها الفاتحة المسرحية في مسرحيته المشهورة "فاوست"، فضلا عن تأثره بالأساطير الأخرى التي صاغها في أروع صورة و أبدع نظم، بحيث أصبحت من فرائد موشاحاته القصصية التي عرفت لدى الألمان باسم (Balade) وفي مقدمتها جميعا أسطورة "الإله و الراقصة"، و لم يفت "غوته" أن يطالع حكيات الفيلسوف "بيدبا" في كليلة و دمنة، تلك الحكم التي وضعها على ألسنة الحيوان لملك الهند "دبلشيم" في القرن الرابع قبل الميلاد.

وحين ننتقل إلى رائد من رواد الأدب الفرنسي، و هو الأديب الشهير - لافونتين - (١٦٢١/ ١٦٩٥)، نجده هو الآخر قد ارتشف من مناهل الثقافة و الحكمة الهندية، فقد تأثر بقصص كليلة و دمنة و أقتبس منها عشرين حكاية نظمها على لسان الحيوان، مضمونها حكم و مواعظ، حيث يقول في مقدمة الجزء الثاني من حكاياته : " ليس من الضروري فيما أرى ... أن أذكر المصادر التي أخذت منها هذه الحكايات الأخيرة، غير أني أقول اعترافا بالجميل : إني مدين في أكثرها للحكيم الهندي (بلباي) الذي ترجم

كتابه إلى كل اللغات، و هو يقصد "بيدبا" الفيلسوف الذي قيلت حكايات كليلة و دمنة على لسانه، و لعل هذا الكتاب هو أكثر كتب الهند التي تحمل بين طياتها الكثير من المواعظ و الحكم و النصائح.

و من الجدير بالذكر أن كتاب "كليلة و دمنة"، له أثر بالغ في تغير مجرى الحكمة، فهنا الطير و السباع و البهائم تنطق و تتكلم، و يدخل الخيال و الفن في صياغة الطريقة التي تلقن بها أصول الحكمة، و في ذلك يقول لافونتين : " أن بلاد الشرق هي مهد القصص و الأمثال المضروبة على ألسن الحيوان و الطير، و الهند خاصة هي مهد القصص الحكمية التي شاعت في أرجاء الأرض، و انتقلت إلى بلاد الصين و التبت و بلغت أوربا فى العصور القديمة.

طاغور رائد الشعر و الحكمة الهندية:

ولعل من أبرز ما جادت به الهند من أدب و حكمة نتاجات الشاعر الكبير "طاغور" الذي وظف عناصر الجمال و المسحة الإنسانية في الحكمة الهندية، ليرد بها على أولئك الذين يصفون الثقافة الهندية بكونها أحادية أجانب، فضلا عن ما قام به من إعادة إحياء التراث الكلاسيكي للبلاد كشف من خلاله الماهية الحقيقة للجمال و الحكمة الهندية، فنظرية اليوبانشاد (Upanishad) التي ألفها عدد من الحكماء بين سنة (٨٠٠ و ٥٠٠ ق.م.) حيث كان ينظر إليها على أنها انسحاب من الحياة إلى التصوف، فيما فسرها (طاغور) بأنها كانت إدراكا مرحا و ممتعا للحياة و إثباتا لعظمة الإنسان وخلوده و حكمته.

كذلك نجد أن نظرية الاهمسا (Ahimsa) التـي كـان الزعيم الراحـل "غاندي" من أنصارها المتحمسين هـي تصوير رائـع للمثل العليـا لأبطـال الملاحم البطوليـة فـهي تمجـد أولئـك الذيـن قـاموا بأعمـال بطوليـة لمقاومـة الطغيان و نشر السلام على الأرض و تؤكد ما جاءت بـه الأسـاطير القديمـة من انتصار الخير على الشر في نهاية المطاف.

إن طـاغور الشـاعر العظيـم التـي تتدفق قصـائده حكمـة و فلسـفة أستمدها من رؤيـاء الإنسـانية للفلسـفة الهنديـة يعد بحـق أميرا بيـن أولئـك الرجال الذين استوحوا وطنيتهم التي لا تتقيد بالتعصب و لا تحدها الإقليميـة الضعيفة و كانت فكرته في الهند الحرة أو بالأحرى في العالم الحر قد سكبها في قصيدة شعرية رائعة يقول فيها:

"هناك حيث العقل لا يهدده الخوف

و حيث الرأس ينتصب عاليا

هناك حيث المعرفة الحرة

هناك حيث تنبع الكلمة من أعماق الحقيقة...

دع بلادي تستيقظ."

هذا و تتجسد الحكمة الهنديـة فـي روحانيـة "طـاغور" الداعيـة إلـى الحب لا الحرب وإلى السلام القائم على العدل، ذلك أنه يحب الطبيعة ويحب الإنسان، و كما يقول الدكتور أحمد أمين: " طاغور هو خلاصة أفكار الهند، و الفن الصـادق عنده هو الـذي يسمو بنـا فوق آليـة الحيـاة و ينسـينا نقصـها وصغائرها و يخرجنـا مـن قيـود التكـاليف، و طـاغور يمتلـك نظريـة ثاقبـة

وحكمة بالغة قلما يمتلكها غيره، فهو ينظر إلى الشاعر المتشائم بأنه لا يمكن أن يكون شاعرا، فشعر التشاؤم قائما على التناقض لأن الذي لا يرى في الحياة شيئا جميلا لا يمكن أن يكون شاعرا، و الشاعر الباحث عن الجمال في الأشياء لا بد و أن يعشق الأرض، و يرضى عن الحياة و يكون ذا روح هادئة مطمئنة".

أن أعظم ما يتسم به طاغور هو حبه الشديد للإنسان، لا فرق بين جنس و آخر و لا بين لون و لون، أو دين و دين، مما دعا " نهرو" إلى تسميته بإنسان الهند العظيم، لذا فهو يعبر عن ذلك في قصيدته " الحياة":

"أريد أن أحيا مع البشر في هذه الحديقة المزهرة

دعني أجد مكانا على هذه الأرض

تفيض الحياة يوما"

لقد أثر "طاغور" في كثير من أدباء العالم البارزين، و له في ذلك شهادات من المدح و الإطراء، من ذلك قول الكاتب الفرنسي الشهير أندريه جيد : " لا أظنني عرفت في الآداب العالمية نبرة أسمى و أجمل من نبرة طاغور".

في حين قال عنه الدكتور طه حسين " أن الذي يملأ نفسك في حضرة طاغور هو تجلى فكرته الروحية على كل شئ في كيانه المادي".

وقال عنه الأديب الكبير ميخائيل نعيمة : " كان طاغور أنشودة عذبة في فم الحياة، فكانت الحياة أنشودة عذبة في فمه و كان جوهرة نادرة

في خزانتها، فكانت جوهرة نادرة في خزانته، لقد غنته الحياة فغناها، وأغنته فأغناها"

لقد كانت وصاياه إلى تلامذته مليئة بالحكمة و الموعظة متوخيا من خلالها بناء الفرد و المجتمع على حد سواء فقد قال موصيا أحد طلابه : " لا تتخل أبدا عن حريتك العقلية سواء لصديق أو لعدو، ودع نوافذ عقلك مفتحة على الدوام، متحررة أبدا فالتعصب يقضي بالموت على عقل الإنسان، و أن تنظر إلى الإنسان على أنه عضو في الجماعة الإنسانية الكبيرة دون أي اعتبار آخر من اعتبارات الطائفة أو الجماعة أو الوطنية أو الجنس. و فيه يقول الشاعر الإنجليزي "بيرنز" : " نحن نحارب و نجمع مالا و نملا رؤوسنا بالسياسات و كل ما هو كئيب في فعله على حين أن مستر طاغور مثل المدينة الهندية نفسها قانع باكتشاف النفس و مستلهم الذاتية".

لقد أستلهم " طاغور " خلاصة أفكاره من الطبيعة، الأم الخالدة، وقد أتجه إلى أحضانها بعد أن فقد زوجته و بناته الثلاث، فبات وحيدا ناسكا يستهوي الوحدة و الطبيعة و في تلك المأساة يقول : " إن عاصفة الموت التي اجتاحت داري فسلبتني زوجتي و اختطفت زهرة أولادي، أضحت لي نعمة و رحمة فقد أشعرتني بنقصي و حفزتني و ألهمتني أن العالم لا يفتقد ما يضيع منه".

لقد ترك طاغور أثرا عظيما من خلال ما جادت به قريحته الشعرية و أفكاره المخضبة بالحكمة، التي لم تزل تنهل منها الآداب الإنسانية في كافة أرجاء العالم، فقد خلف "طاغور" لعشاق الفن و الأدب أكثر من ألف قصيدة، و أكثر من ألفي أغنية و ثلاثة آلاف لوحة، و مئات القصص والمسرحيات و المقالات.

كتاب كليلة و دمنة :

لعل هذا الكتاب أهم كتب الهند التي تحمل معاني الحكمة، و أكثرها انتشارا في أرجاء العالم كافة، فقد ترجم إلى ستين لغة عن اللغة العربية، تلك التي ترجمها عن الأصل الفارسي عبد الله ابن المقفع في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور، و كان قد نقلها من الهندية إلى الفارسية الطبيب الفارسي " برزوية" في عهد الملك "انوشروان" ملك الفرس آنذاك، وفي ذلك يقول "ابن أبي اصبيعة" : " إن برزويه كان عالما بصناعة الطب، موسوما بها، متميزا في زمانه، فاضلا في علوم الفرس و الهند، و أنه هو الذي جلب كتاب كليلة و دمنة، من الهند إلى أنوشروان بن قباز بن فيروز ملك الفرس، و ترجمه له عن اللغة الهندية إلى الفارسية، ثم ترجمه في الإسلام، عبد الله ابن المقفع، من الفارسية إلى اللغة العربية".

كذلك أشار القفطي إلى أن ابن المقفع هو ترجم " الكتاب الهندي المعروف بكليلة و دمنة"، و يؤكد جرجي زيدان ذلك بقوله " و قد كتب أولا باللغة الهندية السنسكريتية من "١٢" بابا، و قد أغنى هذا الكتاب بما احتواه من حكمة و موعظة كثيرا من الآداب و الثقافات العالمية التي تناقلته عبر ترجمات مختلفة".

وفي الإطراء على هذا الأثر الأدبي الثر و التأكيد على هويته الهندية، يقول الكاتب عمر الطباع : " وخلاصة القول حول هوية كتاب "كليلة و دمنة"، أنه سنسكريتي المنبت، إنساني الثمار، فلئن كانت جذور قصصه الخرافي، قد تولدت في ترجمة الشخصية الهندية، بما فيها من فكر متخيل، و خيال مفكر، جعلت هذا الفن غير المصبوغ بحدود زمنية،

أومكانية معينة، و غير مقتصر على جنسية أدب بالذات، لقد أتاحت له أن يجد ظروف حياته، و نمائه، في أجواء الأدب جميعا، فإذا بهذا الجذور ترتفع ساقا، و تتشعب أغصانا و أفنانا، تمتد ظلالا، و تتثاقل جنيا و قطافا دانيا، تتذوقه الإنسانية قاطبة".

إن ما تحدثنا عنه إنما هو غيض من فيض، لا يمثل - بكل تأكيد - ما جادت به الحكمة و الثقافة الهندية، التي أسهمت بدور كبير إثراء ثقافات العالم الأخرى، فمثلما استلهمت هي أيضا من روائع و كنوز أدبية جادت بها شعوب الحضارات العريقة، نظيرات الحضارة الهندية في الأصالة و القدم، مثل حضارات بلاد الرافدين ووادي النيل و الحضارة اليونانية و الرومانية أو حضارة التبت و غيرها.

حيث كان من ثمار هذا التلاقح الثقافي و الأدبي، نتاجات كبار الأدباء و الكتاب في العالم، التي جادت أقلامهم بمضامين الحكمة و الفلسفة المستمدة من ثنايا تأريخ تلك الشعوب العريقة.

المجتمع الهندي

بقلم: أ.د. محمد أحمد محمد

للهند و مصر علاقات و تاريخ طويل و ثقافة متشابهة، و لكن للأسف الشديد لا يعرف الشعبان عن بعضهما البعض إلا " جواهر لال نهرو" و عبد الناصر" و "حركة عدم الانحياز" و أميتاب بجن" و "الرقص الشرقي المصري"، في حين أن البعض لا يعرف شيئا عن الرقص الهندي الذي يعتبر طبقا للعقيدة الهندوسية واحدا من الطقوس التعبيرية، و شكلا من أشكال الصلاة ... و هذا الرقص لا يختص بالسيدات فقط بل و الرجال أيضا.

أما عن الأدب في البلدين فمعرفة الشعبين عن آداب بعضهما البعض تكاد تكون ضيئلة، فلولا حصول "طاغور" على جائزة نوبل ما قرأ العرب عن آداب الهند، و للأسف حتى ما وصل إلينا كان معظمه عن طريق الغرب، و أنا واثق قبل أن أتحدث عن مشاهداتي للمجتمع الهندي من أن الجيل الجديد و الذي أنا أخاطب بعضا منه الآن سيأخذ على عاتقه هذه

المهمة و هي نقل بعض الآداب الهندية إلى العربية ليتعرف المجتمع المصري بذخائر الآداب الهندية، و كما يقال " إن الأدب هو مرآة المجتمع".

و من خلال دراستي لبعض أنماط الآداب الهندية وجدت أن هذه الآداب تحتوي في داخلها على تاريخ البشرية منذ بدء الخليقة و حتى عصرنا الحديث .... و هناك رواية تقول بأن آدم عليه السلام هبط على أرض هذه البلاد.

و منذ أن وطأت قدمي أرض الهند في أواخر أكتوبر ١٩٨٧م و أنا أرى مظاهر التشابه بين البلدين، إذ بدأت رحلتي في الأتوبيس الذي لا يقل جمالا عن الأتوبيس في مصر... الجميع يدفع الجميع من الخلف و الكل يجري وراء الأتوبيس و الرجل يلتصق بالمرأة، إلا أن أفضل شئ هناك هو أن المحصل (الكمساري) لا يضطر إلى شق طريقه بين أجساد الناس كما هو الحال في مصر إنما يظل جالسا على مقعده الخشبي دون عناء.

و عندما وصلت إلى " دهلي" كانت نسبة الرطوبة عالية و بقايا المانسون (أحد فصول السنة المهمة في شبه القارة) و هذا اللفظ مأخوذ من الكلمة العربية (موسم) فهو يبدأ من شهر يونيه حتى أكتوبر و يستقبله الناس بكل ترحاب باعتباره هبة الخير من الله، برغم ما ينتج عنه من فيضانات مدمرة و إغراق للحقول و اكتساح للبيوت و ضياع للنفوس أحيانا. وقد وصف شاعر الهند العظيم "كاليداس" هذا الفصل من السنة قائلا بأن الرياح تتقدم بغيومها الثقيلة كالفيلة المنطلقة إلى الأمام عظيمة هائلة محملة بأمطار الرحمة و تتقدم و كأنها ملوك على رؤوس جيوشهم - البرق أعلامهم، والرعد طبولهم.

تذكرت على الفور الفلاح المصري الذي يحرث الأرض و يبذر البذور و ينتظر مياه النيل لكي تمنحه الحياة، و رغم أن الهند هي بلاد الأنهار، إلا أنها تعتمد في الغالب على مياه الأمطار لما لها من أهمية بالغة في حياتهم، لدرجة أنهم جعلوا للمطر إله هو "اندرا" الذي هو طبقا لعقائد الهندوس إله الخصيب و النماء. و لكن الشقاوة الحقيقة في موسم الأمطار هذا يقع عبئها على المتسولين و سكان الأرصفة، فهة فئة لا بأس بها إذ ليست هناك أماكن لا يوانهم مما يجعلهم يلتحفون السماء ومواقف السيارات و محطات الأتوبيس و السك الحديدية و أركان الشوارع، و هذه الفئة تمثل أصحاب الأعمال الدنيا من العاطلين و الباحثين عن الرزق اليومي مع أسرهم، فالجو بالنسبة لهم محتمل في أغلب شهور السنة حيث لا يحتاجون إلى غطاء ثقيل يقيهم من البرد، و هنا تذكرت بلدي و حمدت الله على عدم وجود هذه الفئة عندنا، إذ أن الجميع ينام حتى و لو في عشش و أكواخ من الخشب و البوص.

و القارئ للفلسفة الهندية يرى أن التضحية من أهم عناصرها، فالإنسان الهندي وبخاصة أتباع الديانة الهندوسية لا بد له و أن يهب للآخرين بعض الأشياء، و كلمة الآخرين هنا لا تنحصر على البشر فقط، بل تشمل جميع المخلوقات، لذلك نجد أن الإنسان الهندي قبل أن يتناول وجبته الصباحية نجده يضع جزءا من طعامه للطيور و الحيوانات و على سطح المنزل و أمامه، ليس هذا فحسب بل لقد رأيت بعضهم يأخذ الطعام و يذهب به إلى الغابات المجاورة لمنطقته لا طعام الكائنات على مختلف أشكالها وأنماطها سواء الضارة أو النافعة منها.

و الحقيقة أن التجوال في الهند طويل و مرهق إلا أنه ممتع، فبقدر المشقة و التعب يستطيع الإنسان أن يعرف الهند، فكان الانطباع الأول لي أن هذه البلد هي بلد الفقر و المساوئ الأخرى و ذلك لعدم معرفتي الكاملة بالمجتمع الهندي، و لم أكن أدري أن هذا الفقر يشبه الشجرة الجافة التي تحمل ثمارها بين جنباتها و كأن الحكمة التي تقول " لا تنظر إلى الشجرة وإنما أنظر إلى ثمارها" قد أتت إلينا توصفهم.

لقد عشت أكثر من ست سنوات داخل المدينة الجامعية بجامعة "دهلي" فكانت هذه الأيام أفضل أيام حياتي لما فيها من تجارب و خبرات، حيث كان يقوم على خدمتي كثير من الهنود، و أذكر منهم شاب أسمر قصير و كان اسمه "برتاب"، نحيف، تزوج أكثر من مرة، و رغم نحافته و قصر قامته لم تكن الزوجة تستمر معه أكثر من عام، حتى تنتقل هي إلى أعلى ويذهب هو إلى أسفل محملا بالأطفال، و كانوا لسوء حظه بنات، و البنت في حد ذاتها كارثة داخل المجتمع الهندي.

فالمرأة عامة في مختلف العصور ظلت أداة لظلم الرجل، بالرغم من تعاليم معظم الأديان التي تحث على احترامها، إلا أن البعد عنها ظل أمرا ضروريا لأن القرب منها يؤدي إلى المعصية، فالمرأة في المجتمع الهندي- حتى و إن كانت صاحبة المرتبة الثانية في الحياة - إلا أنها هي صاحبة القرار و أكثر احتراما و أكثر استقلالا و كفاحا في الحياة، لأن القانون في الهند يساوي بين الرجل و المرأة.

و من الصعب على الشعب الهندي - بصفة عامة - أن يتخلى عن عاداته و تقاليده حتى و لو كانت لا تتفق مع ميوله في العصر الحاضر، والدليل على ذلك مشكلة Dowry (جهاز العروس) أثناء الزواج، و تعد هذه

المشكلة من أكبر المشاكل التي تواجه المجتمع الهندي بما فيهم المسلمين للأسف الشديد، لأنها جعلت المرأة عبء دائم على الأسرة.

ففكرة جهاز العروس بدأت منذ القدم في كتب الرامانيا والمهابهارات و ذلك عندما أراد والد الإله "رام" "الراجا دشرته" أن يزوج ابنه "بسيتا" إحدى بنات ملوك الهند العظماء في ذلك الوقت فقدم لابنته بعض الهدايا و التحف و الجواري، و من ثم استمر هذا الحال بين الملوك والأمراء فقط، إلى أن تطور هذا الوضع و وصل إلى طبقة الأغنياء من الناس الذين بدأوا المنافسة في تشكيل وحدات اجتماعية منفصلة و كان على رأس هؤلاء الناس بالطبع، طبقة البراهمة التي بادرت بدفع الكثير من المال للزواج بين أفراد هذه الأسرة.

إن تقسيم الديانة الهندوسية إلى هذا النظام الصارم من الطبقات الأربع التي يقوم عليها الدستور الاجتماعي الهندي، أتاح لطبقة البراهما- وهي قمة المجتمع الهندوكي - و التي تمثل أيضا القائمين بالفكر و الدين - النفوذ و السلطان الواسع الذي ضاق به أفراد الطبقات الأخرى.

لقد أدى بعض المصلحين دورا لا بأس به في تخفيف وطأة هذه الفئة تجاه الطبقات الأخرى حينما هاجموا نظام الطبقات ضمنيا مما أدى بالبراهمة إلى إدخال قدر يسير من التسامح في مذهبهم الذي يقوم بتقسيم الناس إلى ثلاث طبقات بعدهم، بينما عدوا أنفسهم على أنهم أصحاب الطبقة الأولى و وضعوا لهم أسماء خاصة، لا يستطيع أي شخص من الطبقات الأخرى اقتنائها مثل " بندت" (الكاهن) - "مشرا" - " جها" - "شرما"- "شترويدي" (العالم بالفيدا) و غيرها من الألقاب التي مازالت طبقة البراهمة تسمى بها أبناءها.

أما الطبقة الثانية فهي طبقة " شتريه" و التي يتكون منها القادة والمحاربين حيث أنهم يتميزون بالقوة و الصلابة، لذلك يجب عليهم حمل السلاح دفاعا عن الوطن، كما وضعت لهم أسماء خاصة بهم مثل "سنغ" (أسد) - " شوهان" - "شكلا" و غير ذلك من الأسماء.

أما الطبقة الثالثة فهي طبقة " ويشي" التي تقوم بالزراعة و التجارة لإطعام رجال الدين و الإنفاق عليهم، و هذه الطبقة يقل ذكرها بصفة عامة لما لها من عدم تنافس تجاه الطبقات الأخرى، و من أسمائهم " كبتا"، "بهاتيا" ، " أجروال" ، " جسوال"، " ملهوترا" و غيرها من الأسماء التي تساعد على معرفة نوع الطبقة التي ينتمي إليها الفرد في المجتمع الهندي.

أما فيما يتعلق بطبقة " الشودر" و هي طبقة المنبوذين، لأنها تقع في قاع المجتمع الهندي و هي تقوم بأحط الأعمال في نظر المجتمع الهندوكي مثل جمع القمامة و غير ذلك من الأعمال الخاصة بهم، و تجدهم ينعزلون في أماكن خاصة بهم لأنهم يتعرضون لكافة أنواع الاستغلال من قبل الطبقات الأخرى، حيث أنهم يقضون حياتهم على فتات من العيش دون أدنى إحساس بإنسانيتهم.

وفور وصولك إلى هذه البلاد تستطيع أن ترى التناقض الغريب في التقدم العلمي و التكنولوجي، إلا أنك تجد العديد من هؤلاء البشر الذين ينتمون إلى الطبقات الدنيا يسكنون مع أسرهم في أكواخ من الصفيح والخشب و البوص، و هذا الكوخ لا يزيد بأي حال من الأحوال عن أربعة أمتار و هي كلها تفتقر إلى مرافق الصحة و الصرف.

و طبقا للنظام الطبقي هذا نجد أن الزواج لا يتم بين طائفتين مختلفتين كما لا يحق لأي إنسان تغيير طبقته إلى أن يموت لأن هذا يعتبر خرقا لتعاليم الدين ... فالزواج الطبقي هذا يهيمن على الحياة الاجتماعية الهندية لما فيه من حواجز و قيود، لا يستطيع الرجال و النساء من خلالها اختيار زوجاتهم، فإذا حدث و تزوج رجل من خارج طبقته فان عمله هذا لن يقابل بإحسان. إلا أن بعض المصلحين و المشرعين اجتهدوا أخيرا و أباحوا لأبناء الطبقات الثلاثة الأولى حق المصاهرة فيما بينهم على قدر دون التجاوز إلى طبقة المنبوذين وذلك لوقاية المرأة من أن تفقد وضعها الطبقي.

و الحقيقة أن طبقة الفقراء بصفة عامة هي ضحايا هذا النظام الذي يذهب ضحيته العديد من الفتيات ذلك لسبب عدم مقدرة الأهل على دفع هذا المهر الذي يصل إلى درجة الابتزاز أحيانا من قبل الرجل تجاه المرأة، وتشترك في هذه اللعنة للأسف الشديد جميع طوائف الهند من هندوس ومسلمين و سيخ و مسيحيين و غيرهم من الذين انصهروا في عادات وتقاليد المجتمع الهندي القديمة دون مراعاة أن هناك وحدة تجمع بين كل الأفراد وهي الإنسانية متجاهلين كل محاولة دؤوبة تقضي على الفقر و الظلم والتفرقة بين البشر.

لقد أدرك " غاندي" وغيره من المصلحين بحسهم المرهف بشاعة هذا النظام الموروث من الديانات القديمة فقاموا بثورة عملية لكسر هذه القيود، حيث قاموا بتزويج رجل و امرأة لا ينتمي كل منهما إلى طائفة مختلفة فقط، بل من أكثر الطبقات بعدا، و هما طائفة البراهما قمة المجتمع وطبقة المنبوذين قاع المجتمع و كانت هذه أولى المحاولات التي يشهد لها التاريخ.

كما أطلق "غاندي" على طبقة المنبوذين لقب "هاري جن" (رجال، أو عباد الله) و هي كلمة سنسكريتية مكونة من كلمة "هاري" و هي "الله" و " جن" بمعنى الرجل أو عبد، لأنه أدرك أن هذا النظام كان من الأسباب الرئيسية لضعف الهند و خضوعها للاستعمار، فكيف يحررون بلادهم و هم أنفسهم يعاملون ما يقرب من ٣٠% منهم على أنهم منبوذين ... إذ كيف يحق لنا الاعتراض على الاستعمار الذي يعاملنا على أننا منبوذين طالما أننا نحن نعامل أنفسنا المعاملة نفسها.

نعم أنها بلد التناقضات، إذ تلاحظ من ناحية عدم إنسانية هذا النظام و من ناحية أخرى تجد الهندوسي هو أكثر الطوائف الهندية على علاقة ودية بجميع المخلوقات، التي تحيط به أو تعيش في بيئته، و ينمي هذه العلاقات و يغذيها بالعطاء و الصلات و أقرب مثال لذلك كما ذكرت سابقا أن الهندي بمختلف طبقاته قبل أن يتناول إفطاره في الصباح الباكر يضع جزءا من طعامه للطيور و الحيوانات على مختلف أنواعها الضارة و النافعة. تلك هي أبعاد الثقافة الهندية ذات الأبعاد الإنسانية العميقة المتناقضة و التي كما سمعنا يختلط فيها الدين بالفلسفة و بالعلم و السلوك.

و من خلال مشاهداتي للشعب الهندي شعرت بأن الشعب الهندي شعب يعيش حياته بالطول و العرض، إذ جاز لنا التعبير من أجل حياة أفضل دائما فهو يحب الحياة و يعمل و يعرق من أجلها.

ولأن الشعب الهندي يعمل و يكد فانه يشعر أن من حقه التمتع بحياته و لذلك فهو ينتهز فرصة الأعياد و المناسبات المختلفة، لينكب على متع الحياة فيغترف منها ما شاء من أنواعها المتباينة، و ما أكثر أعياد الهند

التي تنصهر فيها جميع طوائف الهند و لا تستطيع من خلال هذه الأعياد أن تبحث عن أي هوية موحدة لطائفة بعينها على مستوى الهند بأكملها.

إن الاشتراك في الانتماء الديني لأي طائفة من الطوائف في الهند يمثل في ذلك الاشتراك في الانتماء إلى الوطن الأم و هي الهند. و الانتماء الديني لا يوفر إلا بعد واحد و جانب واحد و سمة واحدة هي بناء الهوية الهندية.

و الفكرة التي تقوم عليها الهند أنها أرض واحدة تعانق الكثيرين، أي أن الأمة تحتوي على اختلافات في الطبقة و العقيدة و اللون و الثقافة و الأطعمة المحلية و العادات و الملابس، و مع ذلك تبقى أمة واحدة، و طالما ضمت الديموقراطية إلا تطغى إحدى تلك المقومات على الأخرى، و يتحدد بناء عليه مصير أي من أبناء الهند وفق اختلافه أو اتفاقه.

و لاشك أن هناك نزوات انفصالية تؤثر سلبا في جسد العديد من الولايات الحدودية مثل بعض الولايات الشمالية الشرقية حيث تدعو بعض الجماعات إلى الانفصال عن الهند على أسس دينية أو إقليمية أو عرقية، و لا تزال بعض تلك المشكلات تدور رحاها و لكن ليس من المنتظر أن يتأثر أغلبية الهنود بتلك القلاقل.

هذه هي ميزة الهند التي لم أسمع عنها في بلد آخر و أعطتني فترة الدراسة في الهند فرصة كبيرة لدراسة الأدب و الفلسفة و التاريخ الهندي، وكل شئ في هذه البلاد مباح بغير خوف و حرج، لا في السياسة و لا في الدولة و لا في الحب و لا في العمل... كل شئ عندهم قابل للعرض و الكشف.

على كل حال فإن البساطة الهندية التي لمستها تصاحبها عزة ووطنية جديرة بالاحترام و ليس لدى الشعب الهندي ما يخجل منه فهو يعرف جيدا أنه من شعوب العالم الثالث و يعرف أن الاستعمار أورثه بعض مظاهر التخلف و الفقر، بعد أن نهب موارده، و يعرف أنه يجب عليه أن يبذل الجهد الكبير، لكي يعوض التخلف و الفقر.

أما عن مشاهداتي في جنوب الهند فبدأت عندما ذهبت إلى ولاية "اندهرابرديش" عندما دعاني أستاذي إلى زيارة هذه الولاية حيث أنه من سكان "حيدر آباد" عاصمة الولاية و كنت أسمع عن نظام "حيدر آباد" في الدكن الذي حكمها في القرن الثامن عشر و حتى انضمامها إلى الوحدة الفيدرالية الهندية بعد التقسيم، شعرت و كأنني في بلد آخر لا ينتمي إلى الهند سواء من حيث اللغة أو من حيث الطعام أو حتى الشكل فهم أقرب إلى البشرة السمراء و قصر القامة التي تذكرنا بأبناء اليمن. و عند تجوالي في هذه المدينة جاءت توقعاتي صحيحة حيث ما زالت تسكنها جالية لها جذور يمنية ضاربة في القدم، و تزدهر تجارة الأحجار الكريمة من عقيق و ياقوت و اللؤلؤ و المرجان و غير ذلك.

ومن هناك أخذني أستاذي إلى المناطق الأثرية التي قرأت عنها في تاريخ الأدب الأردي، و أهم هذه الآثار هي " قلعة جولكنده" أشهر قلاع العصور الوسطى، استولى عليها ملوك الدولة "البهمنية" في القرن الرابع والخامس عشر الميلادي و أصبحت عاصمة الدولة " القطب شاهيه" في القرن السادس عشر إلى أن استولى عليها "اورنكزيب" وضمها إلى الدولة المغولية و ترك خليفته "اصف جاه" عليها.

تقع بقايا هذه القلعة على مشارف مدينة "حيدر آباد" وزيارة هذه القلعة لا تخلو من الانبهار بالفن المعماري الهندي المصمم على طريقة علمية ربما يعجز العصر الحديث عن تفسيرها الآن، فمثلا المدخل الرئيسي لهذه القلعة، هناك نقطة يمكن فيها الاستماع إلى صدى تصفيق اليد إلى أعلى القلعة من مسافة لا تقل عن ٥٠٠ متر، فكانت هذه بمثابة وسيلة إبلاغ للملك الذي كان يسكن أعلى القلعة.

كما أن هناك أماكن كثيرة أثرية في هذه الولاية يحرص كل زائر على زيارتها، يرى فيها عظمة الإنسان على مر الزمان، فلا شك أن تاريخ الإنسانية و تراثها الحضاري ملك لكل إنسان، إلا أن أهم ما يميز هذه الآثار، أن الدخول فيها مسموح للاجنبي و المحلي بنفس التسهيلات دون تمييز أو مفاضلة.

وبالقرب من " حيدر آباد" تقع ولاية " كرناتكا" و هذه الولاية كان جزء كبير منها تحت حكم نظام "حيدر آباد" و هناك عدد لا بأس به من المسلمين في مدينة "بنجلور" و"ميسور" يتحدثون الأردية بجانب اللغة المحلية. و أهم ما يميز هذه الولاية أنها منطقة صناعية و قلعة علمية كبيرة، لما فيها من معاهد للتكنولوجيا، تعلم فيها كثير من الطلاب المصريين. ناهيك عن الحدائق الجميلة التي تنتشر في الولاية، و مازال منظر حديقة " ميسور" فرنداون" بألوانها و أزهارها الجميلة باقيا في ذهني كلما رأيت زهرة أو وردة جميلة في بلدي.

و لا ننسى دور المغول في تصميم الحدائق العامة، التي ما زالت تعرف بأسمائهم، تسحر روادها بجمالها و تصميماتها الأخاذة، و لكن أجمل حديقتان رأيتهما بعيناي في الهند هما حديقة " ميسور" سالفة الذكر

و "شاليمار باغ" في " وادي كشمير " .... و كشمير ، الجو فيها كالربيع في مصر ، الشمس دافئة حنون و نسمة الهواء منعشة ... لا هـي حـارة و لا هـي باردة ...

لا تكاد تحس ملمسها على جسمك كأنمـا هـي درجـة حـرارة الجسم ..... و تجولت في معظم مناطق هذا الوادي الجميل حيث المزارع و الجبـال الخضراء ... و أهم ما يميز هذا الإقليم هو أنك تشـعر بجمـال الطبيعـة علـى وجوه سكانها.

و من "كشمير" إلى "مدراس" فـي أقصـى الجنـوب و التـي تعـرف حاليا بمدينة " تامل نادو " و لغتها المحليـة التاميليـة و هـي مـن أقـدم اللغـات الهندية و أغناها بخلفيتها الثقافية ..... و هناك نجد على العكـس مـن كشـمير الحرارة الشديدة و الرطوبة التي توجد في المنـاطق الاسـتوائية .... و هنـاك تشعر و كأنك في بلاد النوبة بسبب أن الوجوه هناك شديدة السمرة، و تشتهر بأفضل أنواع الشاي.

إن أهم ما شد انتباهي في هذه الولاية هو أن التبشير المسيحي له أثر كبير فيها، و ذلك بسبب نشاط " الشركة الشرقية" خلال القرن السابع عشـر حيث أحـرز المبشـرون الإنجليز شـعبية كبيرة و اسـتخدموا اللغـة التاميليـة كوسيلة لنشر ديانتهم. كما أنها منبع العلوم التي تغذي الإحساس و العواطـف كالموسيقي و الرقص.

لقد أنشأت " الأم تريزا" في هذه الولاية جامعة للمرأة عـام ١٩٨٤م و اتخذت الجامعـة شـعارا لـها بقول " نحـو المسـاواة". و قـد سـاهمت هـذه الجامعة فـي التـأكيد علـى دور المـرأة وفـي تنميـة شـخصيتها إلا أن الـهدف

الأساسي لـهذه الجامعـة كـان هـو إزالـة الفجـوة المـتزايدة بيـن ثقافـة الـزوج والزوجـة.

إن المرأة في هذه الولاية بالذات تعمل أكثر من الرجـل خاصـة بيـن الطبقات الفقيرة، فهي تقوم بمعظم الأعمال الشاقة كتمهيد و رصـف الطـرق وأعمال البناء تماما كما ترى فلاحات مصر.

و الحقيقة أن المرأة في الهند بشكل عام تعمل أكثر من الرجل أحيانا و لذلك نجدها في معظم الأحايين تنسى أنوثتها و لا تهتم بمـا تـهتم بـه حـواء فـي بلادنـا، مـن التغـالي فـي زينتـها، فـالمرأة الهنديـة ليـس لديـها جنـون المجوهرات، رغـم أن الأسـطورة تقـول أن "سـيتا" زوجـة الإلــه " رام" ، أغراها "راون" بالذهب، و "راون" هذا هو الشخص الذي اختطف "سيتا". و بالمناسبة هو إله في الجنوب و يقدسه معظم هنـدوس الجنـوب وبـالأخص في ولاية " تمل نادو".... نعم المرأة الهنديـة لـها ولـع باقتنـاء المجوهرات، خوفا من الزمن و ليس استعراضا، و قد أدى هذا إلى ازدهار صناعة الحلي لدى الهنود.

و أهم ما يثير إعجابك بـهذا الشـعب هـو حبـه للعمـل و تكريـس كـل وقته له، و سعادته بحياته البسيطة غـير المتكلفـة، وقـد اسـتطاع بـهذا العمـل المتواصل أن يحقق الاكتفاء الذاتي لنفسه في المواد الضرورية الغذائية حتى في ميدان التكنولوجيا.

لقد تعلم الإنسان الهندي التقشف و الزهد و حتى ما وصـل إلينـا مـن الزهد و التقشف في عصورنا السابقة كان مصدره الثقافة الهندية، كمـا أنـهم لا يميلون إلى إقتنـاء الأشـياء الترفيهيـة ممـا نـراه فـي بلادنـا، كمـا أن حـب

الإنسان الهندي للنظافة واضحا، إلا أنه لا يهتم بما نسميه الموضة، فما زال الغالبية منهم يلبسون زيهم الخاص، بدأ من أعلى الأشخاص مقاما إلى أدناهم منزلة، و هذا دليل آخر على البساطة و الحفاظ على الهوية.

معظم الهنود نباتيين و في الهند اكتشفت تمسك " أبو العلاء المعري" و المفكر المصري "سلامة موسى" بمبدأ النباتيين في الاعتماد على الطعام النباتي. و مثلما هناك أنواع مختلفة من الزهور فهناك أنواع متعددة من الخضروات و النباتات التي نعرفها و التي لا نعرفها أشهى بكثير من اللحوم بمختلف أنواعها، و في الجنوب نجد معظم الطعام النباتي جيد وطيب المذاق، فالهنود شعب يقدر النبات، حق قدره و يقولون أن معظم الدواء يستخرج من النبات، كما أن الفيتامينات لا توجد إلا في النبات.

أهم ما يميز الجنوب عن الشمال هو ارتفاع نسبة التعليم و روح التسامح ... لمست ذلك عندما ذهبت إلى إحدى ولايات الجنوب و هي ولاية " كيرالا" و التي كانت تعرف قديما باسم "ترافا نكور" و أهم مدنها هي مدينة " كوتشين" و ترافيندرم" و هي كما يصفونها منبع التسامح منذ القدم، لما اتسم به حكامها الذين سمحوا بإنشاء أول مسجد و أول معبد يهودي وأول كنيسة مسيحية، و قد دخلها الإسلام في عهد الصحابة و استقر بها التجار العرب في أقاليم " مالابار" و يعرفون حاليا باسم "الموبالاس" كما تتمتع هذه الولاية بتناسب غريب بين الطوائف الثلاثة المسلمين، و الهندوس، والمسيحيين، هذا بالإضافة إلى أنها مليئة بالمناظر الطبيعية الجميلة التي تحمل الطرز الإنجليزي كبساتين جوز الهند و الصنوبر. و بها ما يقرب من أربعون نهرا يقاطع بعضها البعض، كما أن شعبها مرح للغاية و نسبة التعليم فيها تكاد تكون مائة في المائة، و الطراز المعماري الخاص بهذه

الولاية لا تجده في ولاية أخرى كالقصور الخشبة و كنيسة "فاسكودي جاما".

تعتبر الهند ثاني أكبر دولة في العالم بعد الصين من حيث عدد السكان و سادس دولة من حيث المسلحة و على أرضها تعيش كافة أتباع الديانات و المعتقدات الثمانية الرئيسية في العالم، و الهند ليست دولة متعددة الديانات فقط و إنما هي أيضا مجتمع متعدد اللغات فإلى جانب الإنجليزية هناك ١٨ لغة معترف بها في الهند، و مسجلة على عملاتهم الورقية، علاوة على ألف و ثمانمائة لغة أخرى و آلاف اللهجات، و تشكل الديانة الهندوسية و الدين الإسلامي العقيدتين اللتين يدين بهما أكبر عدد من سكان الهند، كما أنهما الوحيدتان اللتان تنتشران على امتداد الهند و لا تنحصر أن مثل الديانات الأخرى في مناطق بعينها بل أنه على المستوى الإقليمي و شبه الإقليمي يشكل الهندوس و المسلمون أكبر تعداد بين الطوائف الأخرى.

و المجتمع الهندي مجتمع متناقض شأنه في ذلك شأن أي مجتمع ينمو من التخلف إلى التقدم، و يلتقط القيم الجديدة في حين يحافظ على القيم القديمة. إن التأثير الأوربي قد فرض على الناس في الهند طرازا جديدا في التفكير و السلوك و ذلك لأن الأفكار الغربية ذات طابع تجريبي في جوهرها، فقد دخلت في صراع مستمر مع الأفكار و العقلية الهندية السائدة.

و الفرق بين تأثيرنا و تأثرهم بالحضارة الغربية أن تأثيرنا ظل مقتصرا على الأزياء و بعض العادات و التقاليد الغربية التي تتناسب مع المجتمع الغربي فقط، دون التأثير بالأفكار و العلوم الغربية الحديثة، إلا أن الهنود لا شك أنهم أخذوا بعضا من عادات الغرب و التهموا و هضموا الأفكار و علوم الغرب إلى أن ذهب البعض بقوله إن اللغة الإنجليزية

وآدابها هي أعظم ما جادت به بريطانيا على الهند فكانت أهم وسائل الإطلاع على علوم الغرب الحديثة.

وهكذا نشاهد اليوم ثورة صامتة في العادات و السلوك تجري أمام أعيننا، فالقيم الأخلاقية القديمة أخذت تتغير تدريجيا و هذا ينطبق على نظام الطبقات الذي يمثل حجر الزاوية في بيئة المجتمع الهندي.

فالقارئ العربي رغم بعده عن حقيقة المجتمع الهندي إلا أنه يعرف أنها بلد الغرائب و المتناقضات، في ظل هذا وذلك نجد فيها أخلاقيات متباينة تبدأ من أقصى التزمت إلى أقصى درجات التحرر.

و في الهند خمس أقليات هي المسلمة و المسيحية و السيخية واليهودية و الزرادشيتة (أي الباريسين)، و الواقع أن كلمة أقلية هنا كلمة مضللة لأنه داخل كل طائفة من الطوائف سواء كانت أكثرية أو أقلية أكثر من هوية. فلو افترضنا أن الدين هو الذي تقوم عليه الهوية الجماعية، فدعني اؤكد لك أن الهندوسية التي تمثل نسبة ٨٠% من السكان كما نعرف، هي في حد ذاتها ليست ضمانا لانتماء الفرد إلى الأغلبية لأن نظام الطبقات يجعل الهندوسي نفسه ينتمي بصورة طبيعية إلى إحدى تلك الطبقات، و هو ما يمثل أقلية في حد ذاته، فلو فرضنا أن الإنسان ينتمي إلى طبقة البراهمة ففي هذه الحالة نجد أن ٩٠% رفقائه الهنود ليسوا كذلك، و الأمر نفسه ينطبق على بقية الطبقات الأخرى.

و لو فرضنا أن اللغة هي إحدى عوامل الهوية الجماعية، فدعني أؤكد لك أنه لولا شعبية السينما، وولع الهنود بالسينما، ما استطاع نصف

شعب الهند تقريبا، أن يفهم اللغة الهندية، و رغم ذلك لم ترقى هذه اللغة إلى مكانة اللغة الغالبة في الهند.

و لذلك يسهل على الدارس و الباحث للمجتمع الهندي، التعرف على الأصل العرقي و الموطن و اللغة التي يتحدث بها، من مجرد معرفة اسم الرجل، فكأنهم عندما يعرفون أنفسهم يعلنون بصراحة عن أصولهم العرقية المختلفة، على الرغم من المصاهرة التي تحدث أحيانا بين أبناء الصفوة ذوي الأصول المختلفة في المدن الهندية، إلا أن السمة الغالبة تفضل الزواج في حدود جماعته العرقية.

فالتعددية إذا أمر ينبع من طبيعة الهند نفسها و هو أمر يؤكده تاريخها و ينعكس في تركيبتها العرقية، و الباحث يستطيع أن يدرك أن السبب الرئيسي في هذا هو الديانة الهندوسية نفسها، إذ أن هذه الديانة تفتقر إلى الوحدة القومية، كما أنها لا تعرف نظاما واحدا مثل بقية الديانات، فهي تؤكد على التعددية أكثر من أن تنفيها، و المقولة التي تقول أن الجميع أقلية في الهند إذ تنعدم الأغلبية، كلام فيه شئ من الحقيقة و الواقع يؤكد ذلك.

و هناك شيء عجيب في هذا البلد و هو أن الأقليات ليست هي القطاع الأضعف، كما هو معروف في معظم الدول، و الدليل على ذلك "البارسين" الذين يملكون مؤسسات عملاقة مثل "تاتا" و غيره، و يمكننا أن ندلل بهذا على أن الصورة الرائجة بأن الأقليات دائمة المعاناة ليست صحيحة على إطلاقها، على الأقل في الهند.

و أغرب شئ عن هذه الفئة أنهم يشكلون مجتمعا صغيرا بالنسبة لسكان ولاية من سكان الهند، إلا أنهم يملكون ناصية المال و التجارة

والصناعة في البلاد، و خاصة في المناطق الغربية للهند كمدينة " بومباي" و الكجرات"، والأغرب من هذا أن هؤلاء الناس يعتقدون بأن عقيدتهم هي أفضل عقيدة على وجه الأرض. إلا أنهم لا يعلموها لأحد و ليس هذا فحسب، بل أنهم يحرمون على أي إنسان لم يولد باريسيا أن يعتنق هذا الدين، كما أنهم يضعون جثث موتاهم على برج خاص يعرف "ببرج الصمت"، لتنهشها جوارح الطير، حتى لا تدنس بدفنها في الأرض أوحرقها في الهواء، و حاولت الدخول لهذا البرج، إلا أنهم لا يسمحون لأحد بدخول معابدهم و أبراجهم حيث تظل شعلة النار مشتعلة دائما، وهم يقولون أنهم يقدسون النار و لا يعبدونهم، و هذه الفئة هم أتباع الديانة الزرادشتية،التي جاءت من إيران، هاربين من وجه المد الإسلامي، و استقروا في جنوب غرب الهند و عددهم لا يزيد بأي حال من الأحوال عن مائة ألف باريسي.

لقد عانت الهند من الصراعات العرقية في الداخل و بعض المشاكل الحدودية مع جيرانها، و لكن لا هذا و لا ذاك أوقف المسيرة الهندية نحو بناء دولة جديدة تجمع كل هذه التناقضات التي ذكرت بعضا منها، بل نجحت في خلق الأمة الهندية الواحدة و السر في هذا يعود إلى الجو الديموقراطي والتنوع التي تعيشه البلاد، و الذي يقوم على تداول السلطة بين القوى السياسية، و لذلك لم يحدث في تاريخ الهند أي نوع من الانقلاب الذي ربما نراه و نسمع عنه في معظم البلاد الآسيوية. كل هذا جاء نتيجة الوعي السياسي بين أغلبية الشعب الذي لا يجيد القراءة و الكتابة.

و الحقيقة أن أي شخص ينتمي أن تكون بلده من أرقى البلاد و لذلك فهو عندما يزور مجتمعا جديدا فانه يعجب، بل و ينبهر بكل ظاهرة صحية يراها ترقى بالإنسان و تحترم شخصيته و إنسانيته و هو يريد ويتمنى أنه

يكتب عن هذه الظاهرة لعلها تصلح لمجتمعه هذه كانت بعض مشاهداتي عن هذا المجتمع بما له و ما عليه، و لكن على كل حال لكل مجتمع عاداته وتقاليده و تراثه العريق.

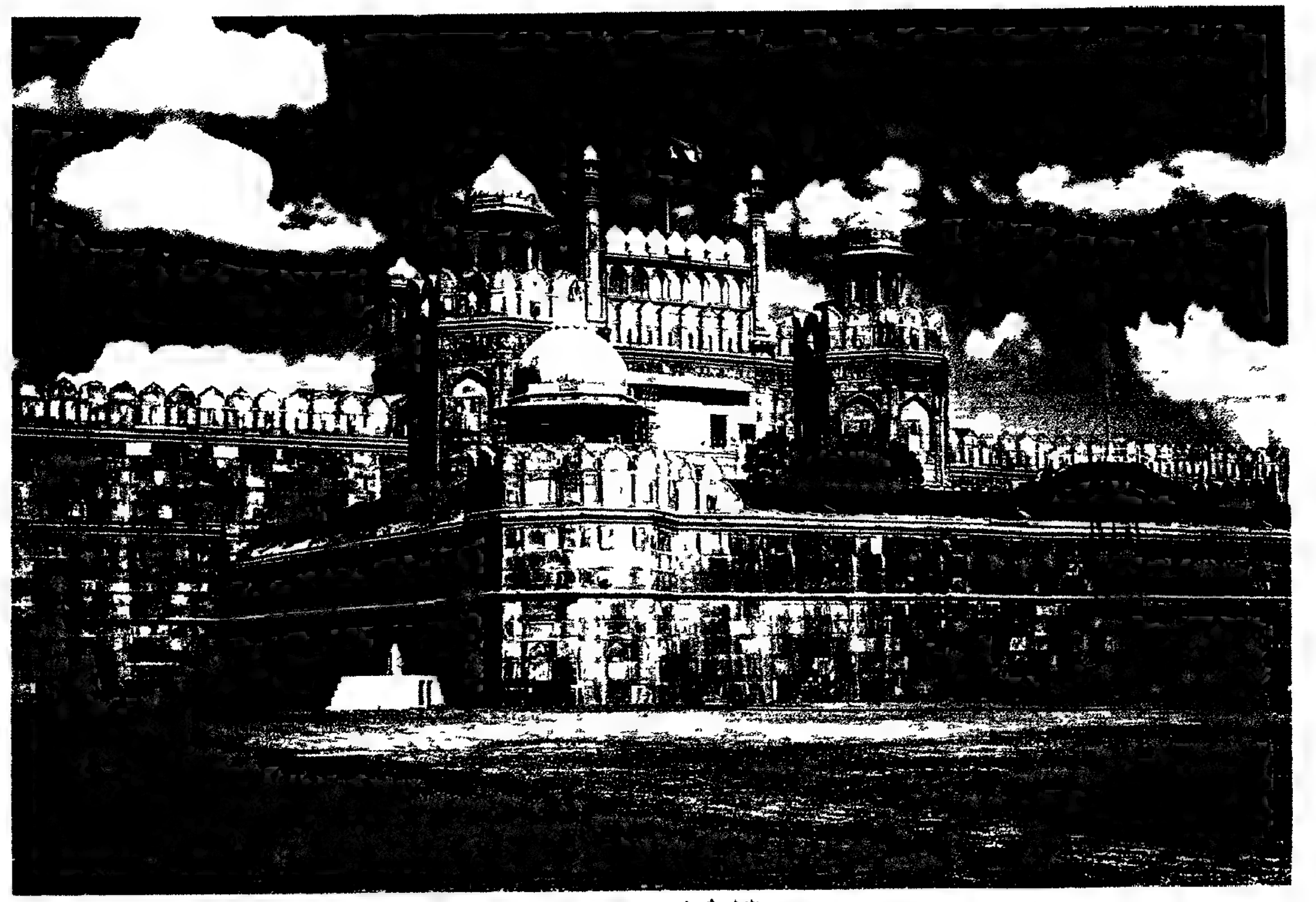
الآثار التاريخية في الهند

بقلم : س. ضياء الحسن الندوي

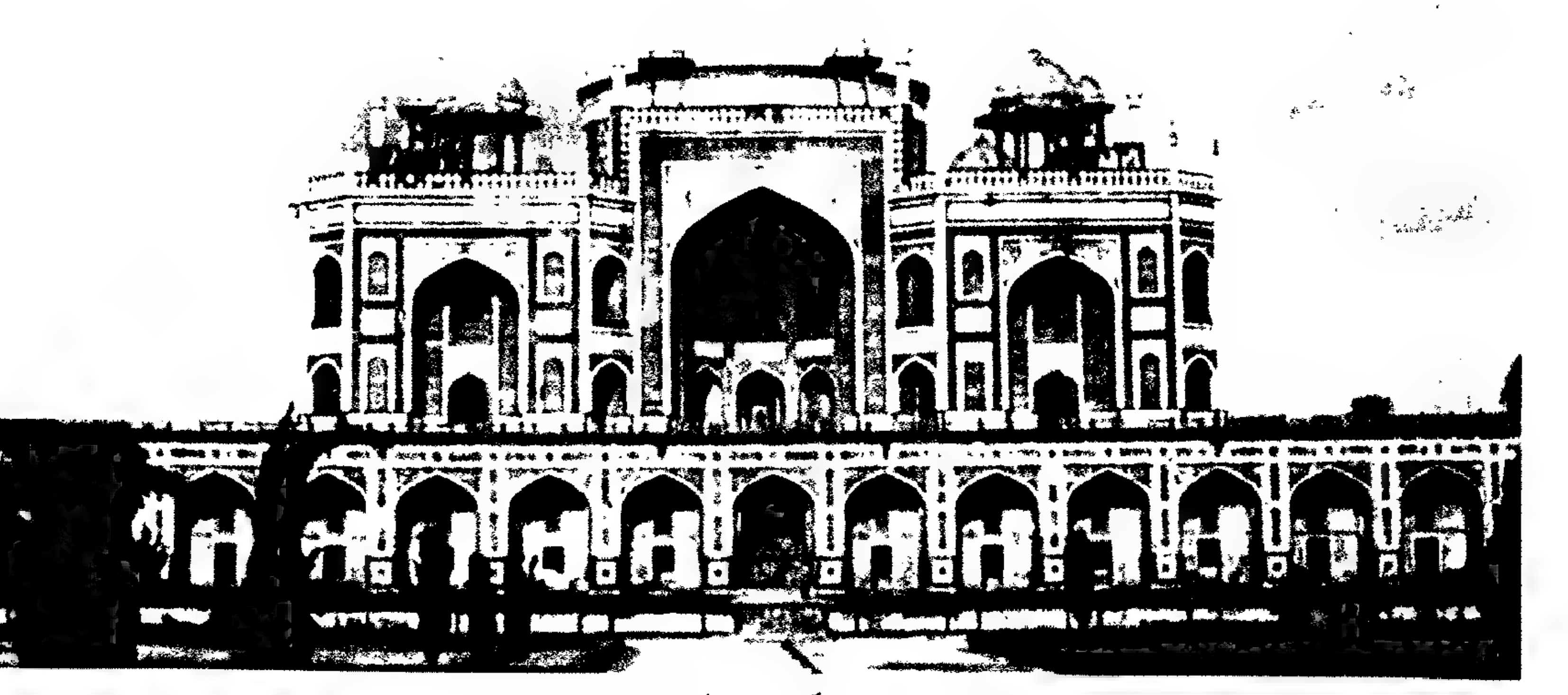
بدأ الغزو الإسلامي للهند بانتظام في القرن السابع الميلادي بدخول محمد بن القاسم مع جيشه في السند بشمالي الهند عن طريق مكران،ثم توالت العساكر الإسلامية بفتوحها قرنا فقرنا و كان من بينها الأتراك والمغول و الأفغان.

أما الذين يعود إليهم الفضل في إثراء التاريخ الهندي و تخصيب الأراضي هنا فهم المغول الذين انحدروا إلى الهند من أسيا الوسطى عن طريق ممر خيبر بقيادة مؤسس الدولة المغولية ظهير الدين بابر الذي غزا الهند في أوائل القرن السادس عشر و أقام حكومته في سنة ١٥٢٦م.

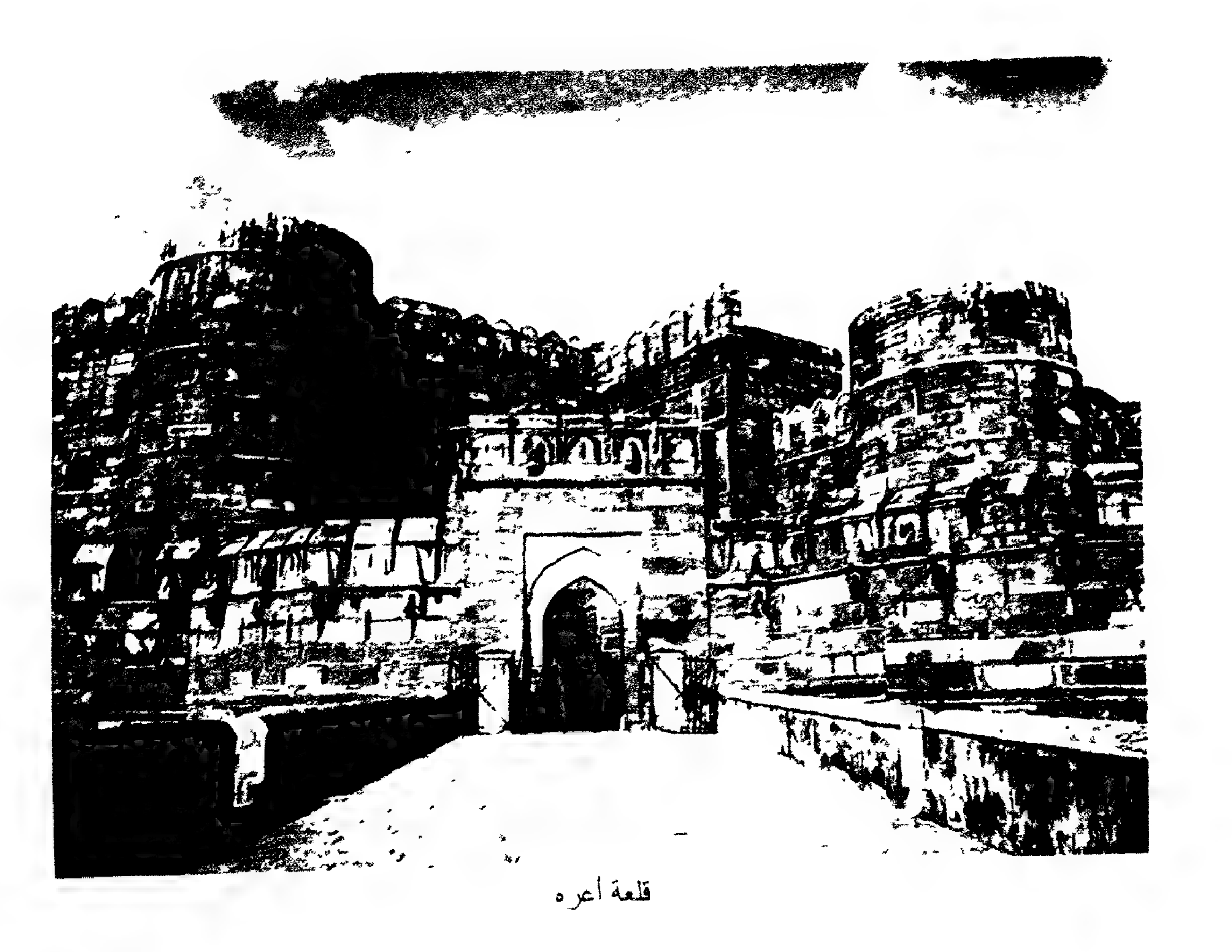
و إن هؤلاء الغزاة المسلمين أقاموا مآثرهم التاريخية في كل مكان في شمالي الهند تقريبا حتى اكتملت هذه السلسلة الذهبية من العمارة و البناء على أيدي الملك المغولي شاهجهان فلم يكتب لأحد من الملوك بعده الطمأنينة و الاستقرار ليفكر في تخليد مآثره و ذكره من أي نوع، و قد تعرضت



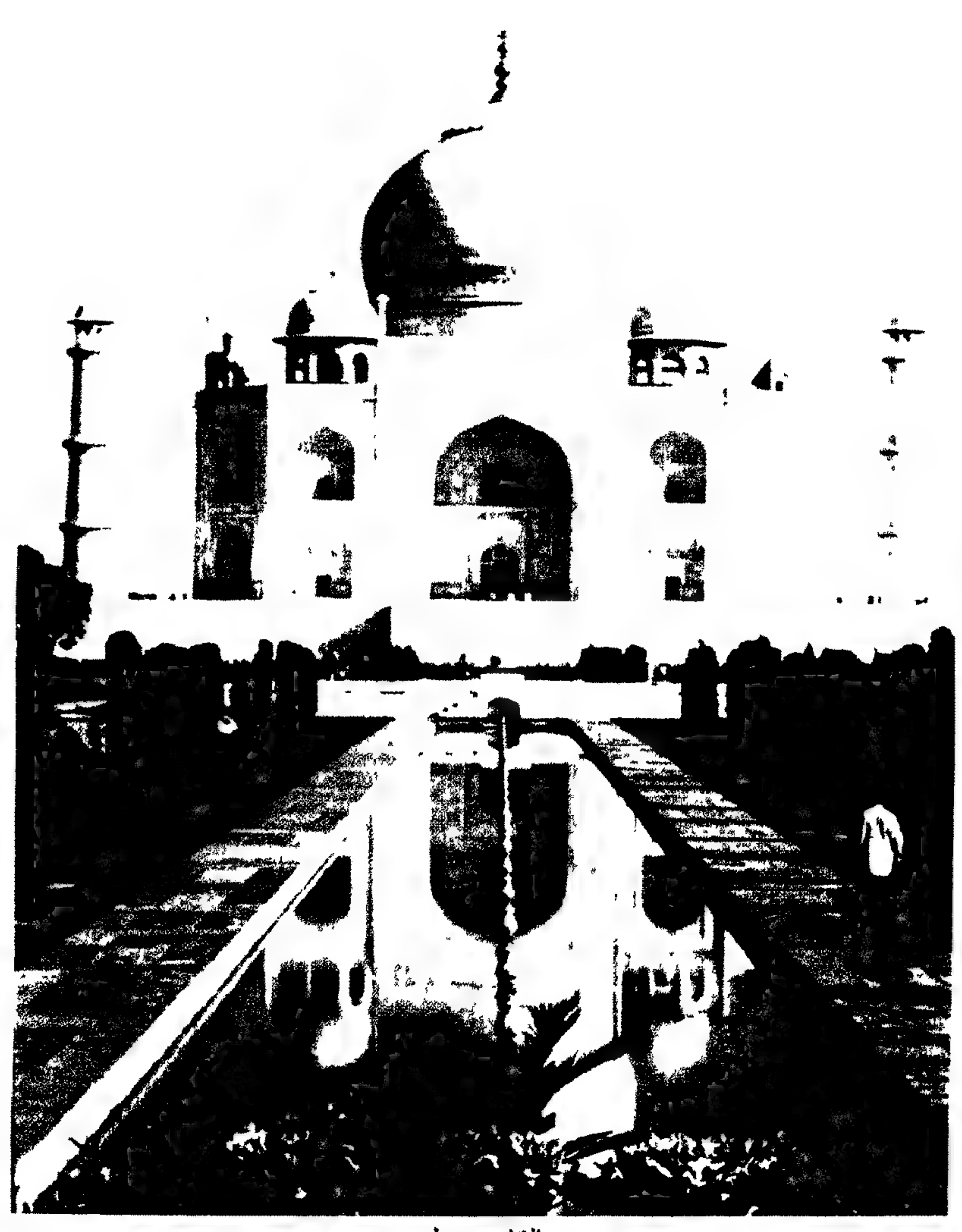
القلعة الحمراء، دهلي



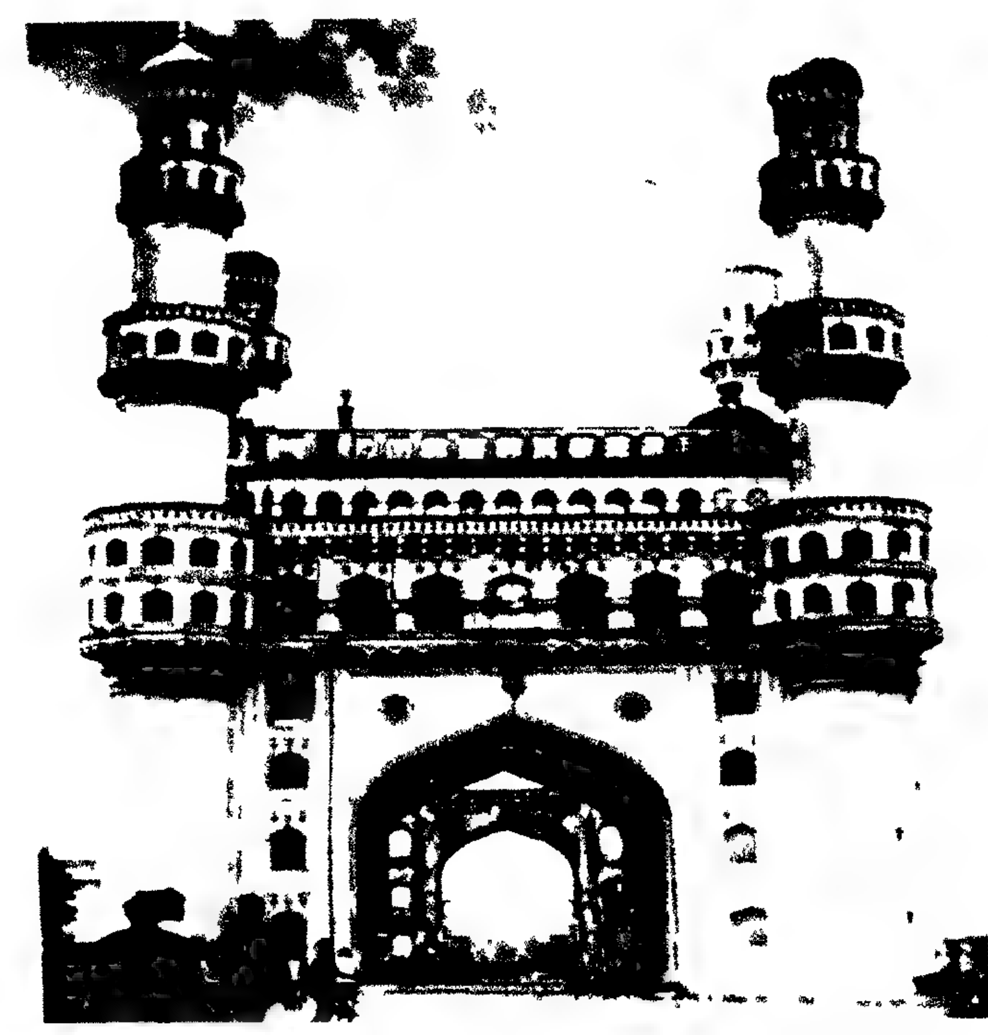
مقبرة همايون



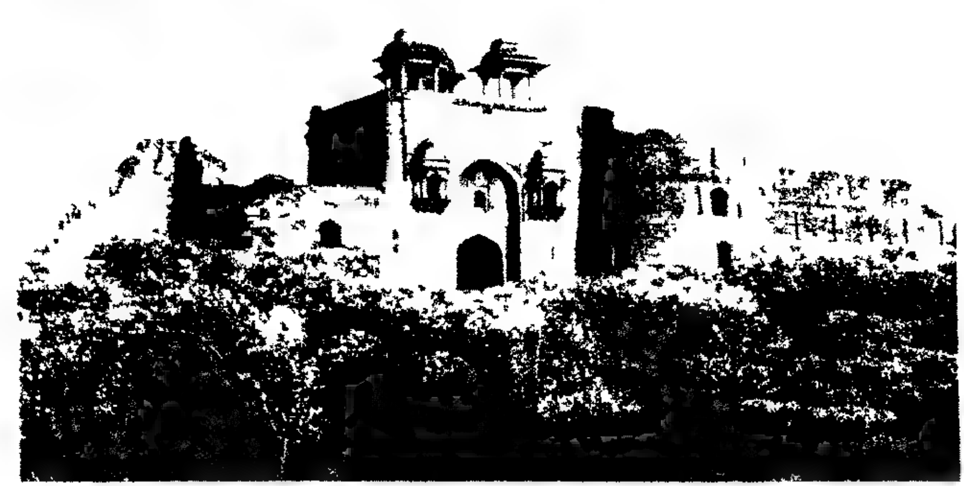
قلعة أعره



التاج محل



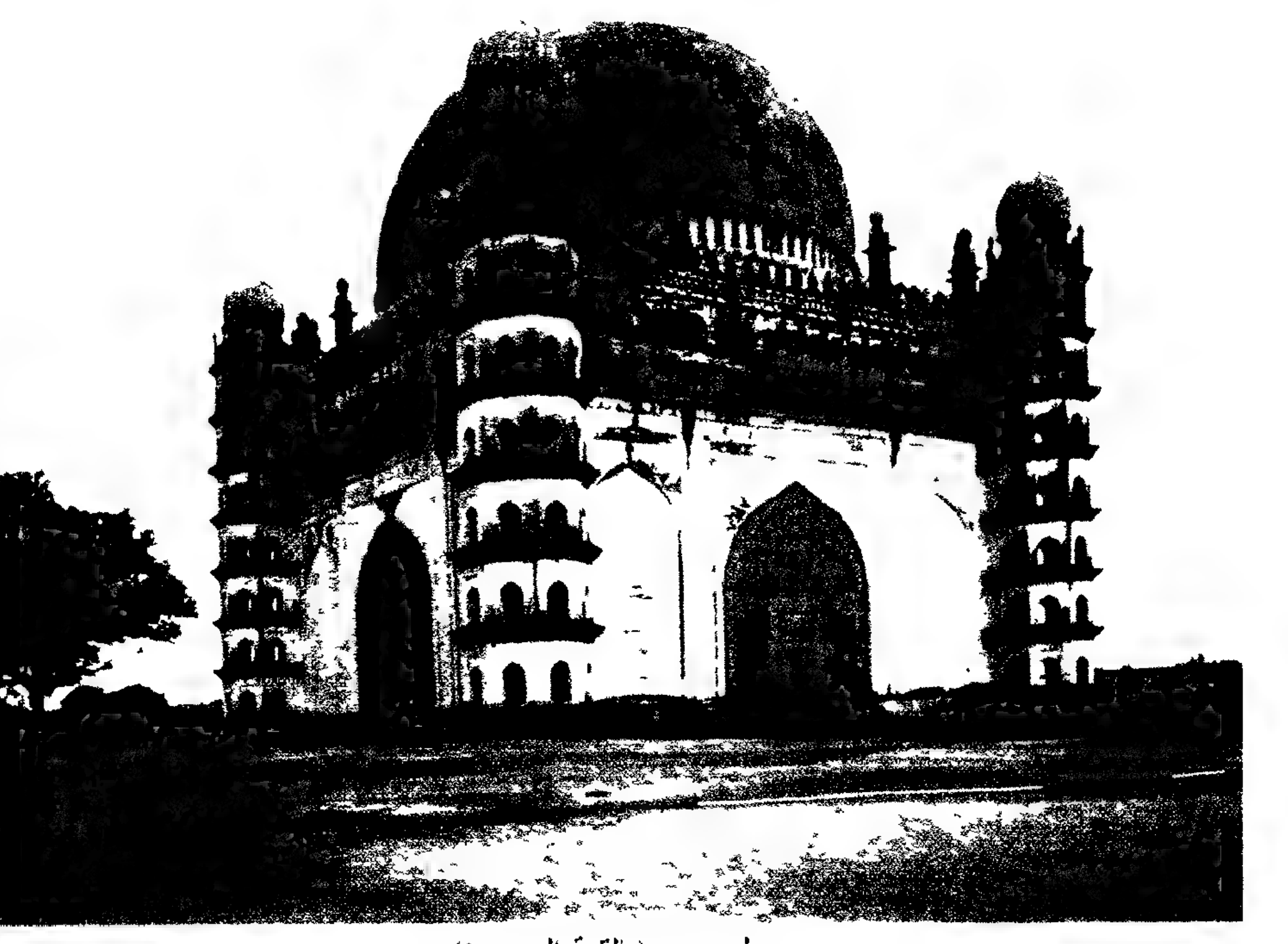
حار ميار



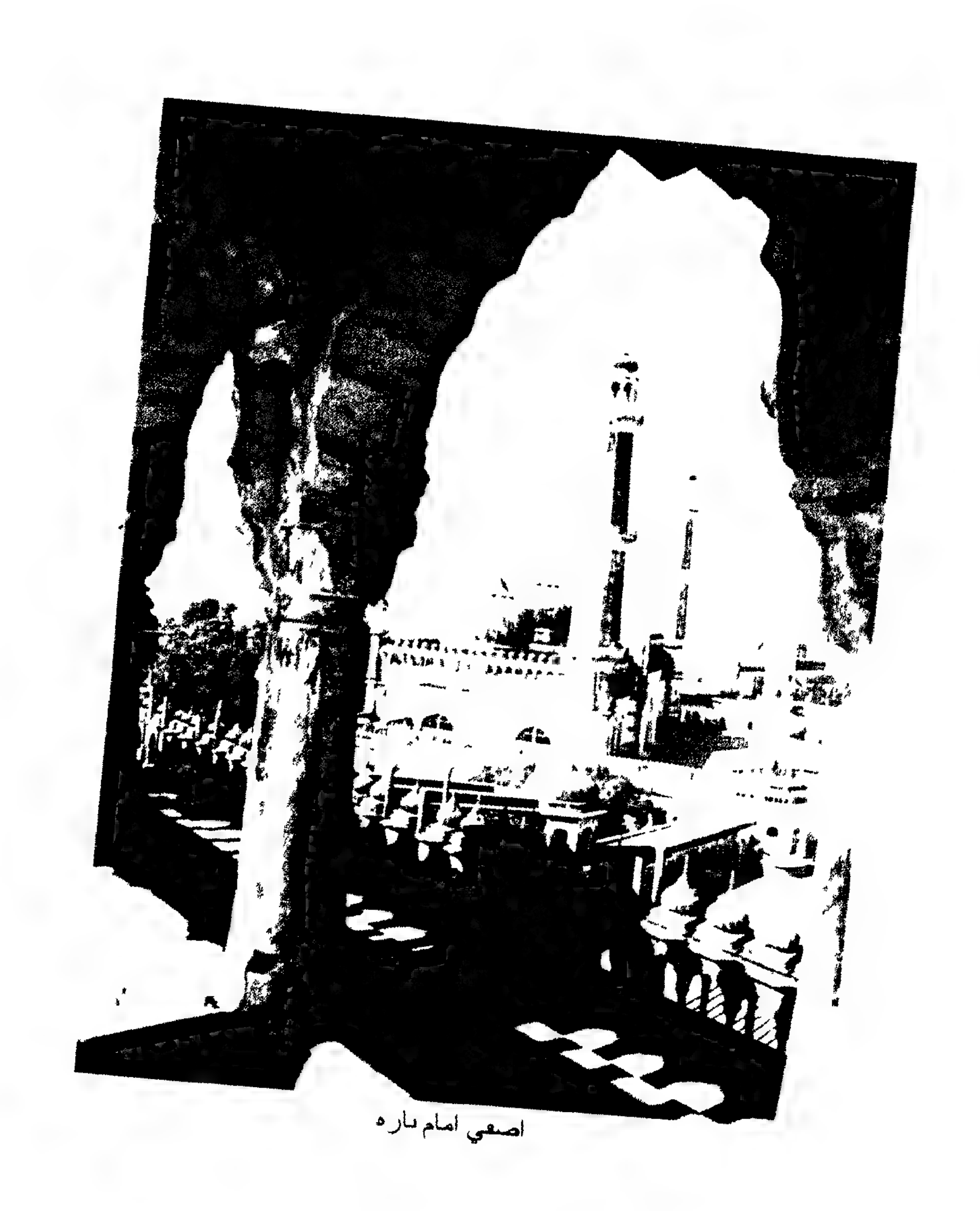
القلعة القديمة أو قلعة شير شاه



بلند دروازه (أي الباب العالي)، لفتحبور سيكري



عول عند (القبة المدورة)



اصفي امام باره

الأسرة الملكية للاضطراب و الفوضى مما هدد كيانها و خرب بنيانها لئلا تعود إليها نضرتها و سيادتها أبدا إلا أن يشاء الله فانه " لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" و من أهم ما شيدها المسلمون من أثار و مباني في مختلف أنحاء الهند ما يلي:

١. منارة قطب دهلي:

بناها قطب الدين ايبك في ١١٩٣م بعد فتح مدينة دهلي على الفور وهذه أطول منارة و ارفعها في العالم بنيت من القطع الحجرية الحمراء و لم يقدر قطب الدين على تكمليها بسبب وفاته فقد كملها ختنه الملك التتمش في سنة ١٢٣٠م، فيها ٣٨٧ درجة، يبلغ ارتفاعها حوالي ٧٣ مترا و هي موزعة في خمس طوابق اولها يشتمل على ١٥٤ درجة، تبدأ المنارة على أرضيتها بقطر ١٤،٣٢ متر و تنتهي إلى ذروتها بقطر ٢،٧٥ مترا اما طابقها الاول فيبلغ ارتفاعه ٣٢ مترا.

٢. القلعة الحمراء دهلي:

بناها الملك شاهجهان في القرن السابع عشر، هي ايضا مبنية بالأحجار الحمراء. فيها بلاط الملك و قاعات كثيرة و فيها مسجد صغير مبني بالرخام الأبيض.

٣. المسجد الجامع، دهلي:

هذا المسجد أيضا من اكبر المساجد في العالم شيده ايضا الملك شاهجهان فيه منارتان عاليتان و في صحنه حوض للماء يتوضا فيه المصلون بني بالحجر الاحمر، و هو على جبل و لذا يرتفع من الارض

حوالي ثمانية أمتار، يصلي فيه المسلمون صلوة الجمعة كل أسبوع وصلوات العيدين كل سنة.

٤. مقبرة همايون:

تقع في حي نظام الدين، دفن فيها الملك المغولي الثاني همايون، اكتمل بناء سنة ١٥٧٠م و يقال أن مهندسها المعماري كان ميرك ميرزا غياث الذي جاء من بخارا آسيا الوسطى، و يقول الخبراء أن تاج محل بنى على نمط هذه المقبرة و لا فرق بينها إلا المنارات الأربع التي توجد في التاج دون المقبرة.

٥. القلعة القديمة أو قلعة شير شاه:

تقع في القرب من نظام الدين عند ساحة المعارض الدولية، بناها الملك شير شاه الذي هزم الملك المغولي همايون و أقام سلطنته في الهند ولم يقدر همايون على استعادة سريره إلا بعد وفاة هذا الملك الشجاع و الغيور. هذا الملك أثناء عهده القصير الذي لا يزيد على عقد واحد استطاع أن يقوم بأعمال جبارة يستفيد منها الجماهير و منها الشارع الشهير بغراند ترنك رود من كلكته شرقا إلى بيشاور غربا. و هو الذي بنى هذه القلعة التي تشتهر بالقلعة القديمة. و هي مبنية بالأحجار البسيطة، داخلها مسجد كبير وقاعات يعقد فيها بلاط الملك و لكن القلعة تهدمت معظم أجزاءها الآن.

٦. قلعة تغلق آباد و قلعة عادل آباد:

هاتان القلعتان تم بناءهما على أيدي ملوك أسرة تغلق، و هما في جنوبي دلهي في حي يعرف بتغلق آباد بقرب من همدرد نكر. بقيت القلعتان

انقاضا و لا يمكن أن يرى فيها إلا بعض الجدران و الأبواب التي تدل على شموخها السابق.

٧. مسجد ستين قبة:

يقع بقرب مدن حي مالويه نكر بجنوب دلهي بناه أحد الملوك الخلجيين و مثل هذا المسجد هناك في دهلي كثير من المساجد تشبهه في البناء على أنها تختلف في الحجم و المساحة.

٨. بوابات المدينة:

كانت مدينة دلهي مدينة محاطة بالحيطان و الأسوار و قد بقيت بعض هذه البوابات حتى الآن و هي تعرف بكشميري غيت و لاهوري غيت و تركمان غيت و دلهي غيت. هذه البوابات كانت تغلق في الليل و يعين عليها حراس مسلحون، كان لا يمكن لأحد أن يدخل المدينة على رغم أنفسهم.

٩. مدينة أغره:

أشهر بناء ليس في مدينة أغره و حدها بل في العالم كله، هو عمارة تاج محل التي بناها الملك شاهجهان تذكارا لزوجته الحبيبة ممتاز محل التي توفيت أثناء ولادة بعض أبناءها. هذا البناء نموذج في الجمال و الاتزان، أجمع المؤرخون و السياح أنه أجمل بناء من حيث التناسق الفني و البراعة المعمارية، هذا مبنى بالرخام الأبيض دفنت فيه الملكة ممتاز محل و دفن فيه الملك شاهجهان أيضا بعد ما توفى بعد وفاة زوجته بحوالي ٢٥ سنة.

١٠. قلعة أغره:

بناها الملك المغولي الكبير جلال الدين محمد اكبر أيام حكمه الطويل، و هي أكبر بكثير من القلعة الحمراء بدلهي، فيها مسجد جميل جدا مبنى بالرخام الأبيض، المعروف باسم "موتي مسجد" (أي مسجد اللالي)، هذه القلعة أيضا مبنية بالأحجار الصلبة.

١١. فتحبور سيكري:

هذه سلسلة طويلة و عريضة للأبنية الشامخة شيدها أيضا الملك أكبر المعروف بالمغول الأعظم كمدينة العاصمة و كمدينة ملكية في الواقع تتضمن هذه المباني عمارات عديدة يستخدمها الملك لمختلف الأعراض مثلا هناك بناء يتراىٔ قبة كبيرة من الخارج و هي في الحقيقة قاعة واسعة يجلس فيها الملك كل يوم مساء للمشاورة مع أمرائه التسعة الذائعين الصيت والمعروفين بـ" نورتن" (أي تسعة لالي) و كانت هذه اللجنة الاستشارية تتكون من كبار الأذكياء و العقلاء يشاور معهم الملك تقريبا كل يوم حول الأمور و القضايا المهمة التي تتعرض لها حكومته و شعبه.

و أيضا هناك قصر ملكة أكبر الهندوكية "جودها باني" إحدى أميرات راجستهان التي أنجبت للملك ابنا لقب فيما بعد بجهانكير و كان اسمه "نور الدين سليم".

و هناك بناء خاص للمناقشة الدينية التي يرغب في مثلها الملك رغبة شديدة، هكذا كان يحصل على المعلومات و المعارف الدينية. لأنه كان أميا تقريبا لم يحصل على التعليم التقليدي.

بوابـة هـذه المدينـة تعـرف كـ " بلنـد دروازه" (أي البـاب العـالي)، ارتفاع هذا الباب أكثر من عشرة أمتار. و هكذا يوجد هناك كثير من الأبنيـة الشامخة و هذه المنطقة تقع على بعد حوالي ٤٠ كيلو مترا من مدينة أغره.

و يوجد مثل هذه الآثـار التاريخيـة فـي المنطقـة الشـمالية مـن الـهند بأسرها على أنها انهدمت و عملت فيها الأيام ما تعمـل فـي الأبـدان البشـرية من تدهور و خراب.

الجدير بالذكر في هذا الصدد على سبيل المثال مدينة لكهنو وبنارس و جونفور و فيض آباد و ميرت و ما إلى ذلك يوجد في كـل مـن هـذه المـدن وغيرها آثار تاريخية تذكر و قد لا تذكر بسـبب عـامل الفنـاء. شـيد فـي هـذه المدن الأمراء و الحكام من اتباع المملكة المغولية المركزيـة لدهلـي مسـاجد ومعاهد و مباني شامخة لم تزل زاهية حتى الاحتلال الإنجليزي.

و إذا سرحنا الطرف نحو المنطقة الجنوبية رأينـا هنـاك أيضـا مثـل هذه الآثار التاريخية فقد حكـم المسـلمون جنوبـي الـهند أيضـا قرونـا طويلـة مسترضين حكومة دهلي أحيانا و معاندين عليها أخرى.

نرى في مدينة حيدر آباد بناء " جار مينار" في قلب المدينة القديمـة و هي بناء يحتوي على أربع منـارات و عمـارة عاليـة السـقوف فـي الوسـط فوقها مسجد صغير يقال أنها كانت شـيدت علامـة أنتصـار الملـوك البهمنيـة على معارضيهم.

يوجد هناك قلعة غولكنده و مدينة غولكنده، عاصمة الملوك الأسـرة البهمنية. هذه المدينة لم تبق منها إلا آثارا تدل على أنـه كـان هنـاك يـوم مـن الأيام مدينة واسعة الأرجاء زاهية الجمال.

أما القلعة فهي موجودة حتى الآن و هي واقعة على ارتفاع مثل جبل يتميز بخصائص عجيبة منها أن السائح إذا تكلم بصوت خافت يسمع هذا الصوت في القاعة المركزية من القلعة التي تقع على بعد و ارتفاع لا يتصور وصول الصوت هناك إلا بالآلات الحديثة.

غول غنبد (القبة المدورة) تقع في ولاية كرناتكا بمدينة تسمى بيجابور و هي أكبر قبة في العالم و اشتهرت بأروقته الهمسية أعني إذا همس هناك أحد يسمع صوت على بعد كبير مثل قلعة غولكنده.

نجد في مدينة ميسور بولاية كرناتكا عاصمة السلطان الشهيد تيبو الذي لا يتصور تاريخ كفاح استقلال الهند إلا بذكره الملهم. لعله كان هو الذي حلم باستقلال الهند الكامل من مخالب الاستعمار الأجنبي. أنه أقام مدينة سريرنغابتنم عاصمة له، بنى فيها قلعة، فيها مسجد شامخ يصلي فيه السلطان الصلوات الخمس. أما الإنجليز فقد هاجموا مملكته لأنهم كانوا يعتبرونه أكبر عائق في سبيل غزوهم الهند. و قد دافع السلطان الشهيد عن كرامة بلاده بكل ما يملك من القوى المادية و الروحية حتى استشهد مقاتلا داخل قلعته بمؤامرة من أحد وزراءه الشيعة المعروف "بمير صادق"، في سريرنغابتنم يوجد قصر الصيف للسلطان تيبو و مقبرة والده حيدر علي حيث دفن السلطان نفسه و أعضاء أسرته الآخرين. إن اسم "تيبو" أصبح رمزا للبسالة و الشجاعة و البطولة و الأبوة، يقول المؤرخون " لو نجح تيبو في مهمته النضالية لتغير مجرى التاريخ الهندي المعاصر و لكانت الهند غير ما هي الآن.

و هناك مقبرة الملك الإسلامي العظيم اورنك زيب الملقب بعالمكير في خلد آباد بقرب من اورنغ آباد بولاية مهاراشترا.

معظم هذه الآثار التاريخية تحتوي على مقابر و قصور و قلاع شامخة مثل مقبرة لودهي و مقبرة صفدر جنك بقرب من مطار صفدر جنك بدلهي الجديدة.

أما الإنجليز فلهم أيضا آثار بنائية في الهند خاصة في كلكته العاصمة الإنجليزية الأولى للهند، في دلهي العاصمة الحالية و في بومباي.

في كلكته هناك كلية فورت وليم، و نيشنل ميوزيم و نيشنل لائبريري و في دلهي مبنى البرلمان و القصر الرئاسي و في لكناو مبنى المجلس الإقليمي و مباني جامعة لكناو، و جامعة كلكته و جامعة دلهي وجامعة مدراس و جامعة بومباي كلها، تم بناءها على أيدي الإنجليز. وهناك كثير من الآثار التاريخية الأخرى لا تسع لذكرها هذه العجالة، و بالله التوفيق.

مولانا عبد الحي :
شخصيته الفذة و مآثره الجليلة

بقلم:السيد محمد عارف حسين

يسعدني أن أكتب كلمات عن مولانا عبد الحي الفرنجي محلي حينما سنح لي وقت و عن شخصيته الفذة، و عن سيرته النبيلة، و عن أسرته الكريمة، و القي ضوءا على سلسلة نسبه و على خدماته العلمية و الدينية والأدبية، و على أسلوبه الجيد السهل، و ألقي الضوء على خدمات تلامذته البارزين، و على مصنفاته المشهورة في الصرف و النحو و المناظرة والمنطق، وفي الحكمة والكلام و في الطب، وفي التراجم و التاريخ و الفقه و أصول الفقه، وفي فن الحديث و المتفرقات وأتحدث عن المراجع الكثيرة.

فالآن حان الوقت أن أتحدث عن هذا الشيخ الجليل الذي يعلو بيانه وينطلق لسانه و يتبحر علمه و يتوسع فيضانه حتى جعل الناس يتهافتون إليه من كل جانب، من بلاد بعيدة و قريبة، و من مدينة متجاورة جاء المواطنون إليه يستقبلونه و يرحبون به، و جعل الطلاب يتلمسون من نواحيه العلمية

والدينية و الأدبية، و استطاعوا الوصول إلى شيء من المعرفة، حتى صار الشيخ للناس في علمه و معرفته، وفي أسرار الدين و الرسالة السماوية وفي أسرار كتاب الله و سنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فيضا من يم هادر وغيضا من فيض ثائر.

وبهذه المناسبة السارة كنا نقف الآن حيارى أمام الشيخ الجليل الفاضل في زمن تزاحم الأحداث و تقلب الأفكار الذي شهد عصرنا، من حيث لا يتسع وقتنا لاستعراض ما كتبه الشيخ. لكن حسن لدينا أن نقوم بمحاولة متواضعة في حقوله العلمية و الدينية و الأدبية التي يوفي الشيخ بعض حقها.

ولم يكن سرد هذا التعبير مستغربا فيه، و قد تتجلى في نفسه قابليته و ذكاؤه المفرط ، و حسن الانسجام و فرط الحياء، و رجاحة العقل، وأصالة الرأي.

ولم يكن من مستغرب في أن تفجرت عبقرية هذا الشيخ ابن الدماء العريقة الهندية في الهند و باكستان و بانجلا ديش و في بلاد العرب جميعا، التي عرفت إبداعه الفني، و فكره الديني، العلمي و الأدبي السامي.

و إن الشيخ - رحمه الله - قد ملأ سمع الشرق و الغرب، و ملأ سمع الزمان و المكان، و إن الأمة الإسلامية في الهند، لم تنجب مثله، في تاريخها المتداول المتطاول في شبه القارة الهندية و لكن قد جاء الشيخ على فترة من الزمن انقطع فيها الأمل و الرجاء.

قد ولد في الهند، كانت بعيدة عن المعاهد العلمية الدينية، و لا هي تعرف مدارس و لا جامعات جيدة و لا مؤسسات علمية حديثة و لا شيء

سوى المدارس الدينية الصغيرة التي تعني عناية واسعة بالدراسة التي بالدراسة التي تتصل بجوهر الدين بالفقه و التفسير و الحديث و علم البيان.

وهذه المدارس و الكتاتيب و المعاهد الدينية اشتملت على ثلاثة مراحل في ذلك العصر. هي التعليم الابتدائي، و التعليم الثانوي و التعليم العالي، في بعض مراكز التعليم و في بعض المدارس البسيطة التابعة لبعض المساجد الرسمية المنحصرة على نظام الإقطاعيات فلم يتجاوز التعليم فيها القراءة و حفظ القران و الكتابة و أوليات الحساب في الحلقات المسجدية في الهند.

وحينما نقرأ أدب هذا العصر المنصرم نحس ألوانا من أدب و ثقافة علمية ضعيفة و هي تختلط بالأوهام و بالمحاكات و التقليد اللازم فلا يجد في العلم و الدين و الأدب و الفن غير هذه الألوان الكريهة تقوم عبارته على الزخارف اللفظية و القوافي و السجع، و على الجناس و البديع، و التعثر والتكلف، و كان طريق التدريس و التعليم في هذه المدراس و المعاهد العلمية باللغة الفارسية، و كان أكثر الأساتذة ليس لديهم سليقة عربية جيدة أو عربية خالصة أصيلة. فاضطر أبناء هذه البلاد أن ينشئوا على هذا الطراز القديم و يمهروا في الفارسية و يقرضوا الشعر الفارسي بدون معرفة لغة القران والسنة، فادى ذلك إلى سقم اللغة العربية في البلاد. و بدأ الضعف فيها و هي آلت إلى الانحطاط و الركاكة و الضيق، و سوء التنازل والتخاذل، فكان الشيخ من الرعيل الأول من بعث في هذا الجسد و نفخ فيه روحا جديدا، و ألبسها ثياب العز و الفخر و أعطاها نور القمر، بدائع الأوصاف و روائع الحكمة و صقل جوانب روحها حتى بلغت إلى الأدب

الرائع، و الشعر الجيد و انتهت إلى الذوق الرقيق و الفهم الدقيق و الخوض إلى جوهر المعاني و البيان و البلاغة.

وكان الشيخ نورا ساطعا و مشعلا مباركا كشف ظلام الجهل والأوهام و الخرافات و أنار الطريق إلى الكتاب و السنة لآلاف النفوس و القلوب.

وقد أوتي قلبا زكيا، و عقلا صافيا، و نشاطا موفورا، و بصيرة نفاذة، و عزيمة،و اغتنم هذه الفرصة و بذل ما لديه من الإمكانيات لبذل الوسع، و غاية الجهد لنيل أكبر وطر لطاعة الله و رضوانه و الخضوع لحكمه و الاستسلام لأوامره، فما أضاع ساعة منذ صباه فجعل يتشرف به الناس من كل جانب في الدنيا و الآخرة حتى صاروا تراب عتبته.

وكان الشيخ قد أوتي من حساسية و رقة شعور، و تواضع و تزهد في الدنيا، و خلق عظيم، فكان يعتبر كنانة الإسلام في منبر الإلهام و مقام الرسالة السماوية، و كان يتكلم كلاما متزنا و موزونا، و لم يكن معجبا بزينة الدنيا، قد أثار الله في قلبه شرارة الإيمان و الحنان، وشرارة الحمية، والشجاعة و الغيرة و العواطف للإسلام.

وكان مثابة للعلم و الأدب و معقلا للدين الحنيف، قد عرف لغيرته حماسته للإسلام، و بحبه العميق للدين فجعلت ترق إليه النفوس وتفيض العيون، و ينكشف السحاب المادي أمام الناس إلى عالم روحاني، ونفحات قدسية و عواطف إيمانية، و ربانية، بخفة الروح، وسرور القلب وصفاء النفس. و أسباب الإعجاب منه هو التعبير عن النفس الراغبة إلى الإسلام،

وأعظم الإعجاب بشخصية هو الطموح، و الحب للإيمان و الدين قد تتجلى هذه الأوصاف في تصنيفاته.

وليس إيمان الشيخ بكتاب الله و رسوله إيمانا جافا بل كان حبيبا له، و يملك عليه مشاعره و قلبه و عقله و تفكيره و بل كان شديد الإيمان بالإسلام، و شديد الإخلاص للدين، و الإجلال لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ويعتقد في أن هذه الأوصاف قوته و ثروته، وإخلاصه للدين الحنيف هو مصدر شعوره الرقيق و علمه العميق، و حكمته الفائقة، فجعل الناس ينزعون منه حب الرسول و الإخلاص و الوفاء للدين وكان هو من تلك الأعمدة التي قام عليها صرح العلوم الإسلامية ونزعات الصوفية التي أرسى قواعدها. محب الرسول و الشيخ معين الدين جشتي ومجدد الألف الثاني و شاه قطب و غيره .

وكان جاهدا و عالما كبيرا، قد عده الناس من طليعة العلماء البارزين في هذا العصر، و كان كاتبا إسلاميا عظيما لا أعرف في ذلك العصر أحفظ منه لروائع الأدب و اللغة العربية و التراث الإسلامي و الدين، و لا أقدر منه على التميز بين أقدار الكلام و الرواة للحديث.

قد شاء القدر المحتوم أن يولد هذا الطفل مولدا دنيا، و شعورا بالإسلام ينفرد عادته من أمثاله من الأطفال، فقد حملته أمه هذا المنهل العلمي الخالد، و جعلت تستمع إلى خرير أمواجه في البطن حتى ولد الطفل في شعبان ١٢٦٤هـ في بانده. فاختار أبوه و أمه الحنون اسمه عبد الحي الذي سيخلد في صفحات التاريخ و في السن الرابع بدأ حفظ القران واستوعب ما قرأه، فلم يهرب من المدرسة و رافق والده الماجد في زيارة الحرمين الشريفين، و استمر في التعليم و اشتغل بالعلوم، حتى برع في

النحو و الصرف و علم الكلام و التفسير و أقبل على الحديث و الفقه إقبالا كليا، حتى حاز السبق على المعاصرين في سنة العشرين.

وكان الشيخ متورعا زاهدا قائما في الليل و صائما في النهار وذاكرا كثيرا و راجعا إلى حكم الله في سائر الأحوال و القضايا آمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، لا تشبع نفسه من تحصيل العلوم و الفنون والمصادر الحيوية و لا تروي من المطالعة و لا تمل من الاشتغال بالكتب الكثيرة و لا تكل من البحث.

و أفتى هذا الشاب المترعرع الذي كان في سبع عشرة سنة من عمره، و شرع في الجمع من ذلك الوقت، حتى انتهت إليه الإمارة من العلم و العمل.

وكان الشيخ آية من آيات الله في فن التفسير و الفقه و في أصول الديانة، و كان محافظا على أركان الإسلام و معظما الشرائع السماوية ظاهرا و باطنا، و غاية في التقوى و الورع و التسامح .

وكان جيد القريحة و حسن المعاشرة، شاركا في أكثر العلوم والفنون و خطاطا جيد الخط. يكتب النسخ و الثلث و الرقعة بكمال النظافة والجودة و الملائمة و الانسجام، يقتفي آثار السنة في القول و العمل.

وكان خطيبا بارعا حلو الإشارة، يعرف مواقع الكلام، و إثارة الهدف في النفوس و كان أول أستاذه أبوه و هو ابن وحيد لأبيه، لذلك كان يرافقه في الأسفار و يصاحبه في الإقامة، فبعد وفاة أبيه لزم بالأستاذ نعمة الله بن الشيخ نور الدين و حصل منه علم الهيئة.

ارتحل إلى الحجاز و استفاد من علماء الحرمين من الشيخ أحمد زميني دجلان مدرس مدرسة بيت الحرم، و من الشيخ محمد بن عرب الشافعي المدرس مدرسة المسجد النبوي، و مولانا عبد الغني و غيره من علماء الهند.

و كان أسلوبه سهلا ممتنعا لا يحتاج إلى التفكير، و تصنيفاته الجيدة تعرض الأخلاق الكريمة و تصور الحياة الإسلامية الذكية الطاهرة ومظاهرها.

وكان أسلوبه متينا يتناول الوزن و الجمل و العبارات الرائقة، والمسجع و المقفى، و هو يتمثل في الإيجاز و الإطناب و في حسن التقسيم و الاختيار و السهولة و الجزالة اللفظية و الاستيحاء و لا يحلق في سماء الخيال.

وكان يحترز من المناظرة، لكنه يساهم في مناظرة العلماء البارزين، وفى المجلس العلمي و الديني و الأدبي.

قد قضى كل حياته في خدمة الدين و في الدرس و التدريس و في مطالعة الكتب. فذلك أثر في صحته أثرا سيئا، و هكذا كان يزداد هذا المرض يوما فيوما، حتى مات يوم الأثنين، ٣٠ ربيع الأول عام ١٣٠٤هـ. و عندما نشر الخبر بموته في المدينة قد ساد الحزن و الألم و الأسى و صلى عليه الناس في ثلاثة أماكن.

والآن هنا نرى تلميذه عبد الرشيد يعبر عن حزنه الشديد بموته في هذه القصيدة:

مات عبد الحي لكن لم يمت فيضانه

إنما مات المسمى و اسمه لا يمــوت

وكان للشيخ عدة أولاده، و بنت واحدة زوجها عام ١٨٨٨م بابن الشيخ المفتى محمد يوسف. و عاش الشيخ و قضى حياته في حب النبي وفي حب ديار النبي، و كلما ذكرت عنده المدينة فاضت عينه.

مصنفاته المشهورة:

١- الفوائد المكية في تراجم البخاري

في الصرف:

٢- تبيان : شرح ميزان الصرف،

في النحو:

٣- خير الكلام

في المناظرة:

٤- الهدية المختارة الندية : شرح الرسالة العضدية

في المنطق:

٥- هداية الورى إلى لواء الهدى: شرح مصباح الدجى في نور الدجى.

٦- نور الهدى لحملة لواء الهدى

٧- التعليق العجيب

٨- حل المغلق في تحقيق المجهول المطلق

في الحكمة:

٩- الكلام المتين في تحرير البراهين

١٠- ميسر العسير

١١- الإفادة الخطيرة

في الكلام:

١٢- المعارف : حاشية شرح المواقف

في الطب:

١٣- الشرح الموجز

في التراجم و التاريخ:

١٤- طرب الأماثل

١٥- النصيب الأوفر

في القصة:

١٦- القول المنثور

١٧- الفلك الدوار

١٨- الأجوبة الفاصلة

١٩ـ الأسئلة العشرة الكاملة

٢٠ـ الكلام الجلي

٢١ـ تحفة النبلاء في جماعة النساء

في أصول الفقه:

٢٢ـ توضيح

٢٣ـ تلويح

في علم الحديث:

٢٤ـ التعليق المنجد

٢٥ـ الأثار المرفوعة في الأخبار الموضوعة

في أصول الحديث:

٢٦ـ ظفر الأماني

المتفرقات:

٢٧ـ اللطائف المستحسنة و غيرها.

الهند في ضوء الكتاب الشهير "نزهة الخواطر"

بقلم: أ.د. محمد راشد الندوي تعريب : إحسان الله خان الندوي

إن عظمة أي بلد من البلدان لا تتجلى جلالته و بهاءه إلا أن يتمتع بالوسائل الطبيعية كالأنهار الجارية و الشلالات المتفجرة و الينابيع المتدفقة و الجبال الشامخة المتلونة و معادن الذهب و الفضة و آبار النفط و البترول، هذه الأشياء هي التي تضمن تطور كل بلد و وجوده و بقاءه و إذا رأينا من هذه الناحية وجدنا أن الله تبارك و تعالى قد أغدق على الهند هذه النعم كلها، فأصبحت الهند تعد من البلاد الكبرى في العالم من هذه الناحية و لكن هذه الوسائل مهما تكثر و تزداد في عددها و جودها لا يمكن الاستفادة منها و الاستمتاع بها إلا أن تكون العلوم و الفنون متقدمة فيها، هذه الوسائل تزيده في الحسن و الجمال و البهاء، و إذا أعرض الإنسان عن هذه العلوم و الفنون فلا تفيد هذه الوسائل الفطرية و النعم الإلهية شيئا، بل الإنسان لا يمكن له أن يصل إليها، بل و هي ستكون خافية مدفونة في بطن الأرض.

وكانت الهند مهدا للحضارة و الثقافة منذ زمن قديم و تتضح أهمية تاريخها الحضاري و الثقافي بأنها لفتت أنظار علماء التاريخ و الجغرافيا من عهد قديم و كل من ورد إليها جذبته أرضها الجميلة فتوطن فيها فوجد بيئتها ملائمة له فانصهر فيها، فالذين و ردوا إليها كانوا يحملون ثقافة متنوعة و أحاسيس الحب و المودة و التلاءم فيما بينهم، كانت من ميزة سكان الهند أنهم رحبوا كل من جاءوا إليها ترحيبا حارا و استفادوا بهم في حقل العلم و الفن و الثقافة و وهبوا لهم ما كان لديهم من العلم و العرفان، فبدأ من هذا الجو عهد جميل للتبادل الثقافي و الحضاري فما زال تصل إلى الهند أشعلة العلوم و الفنون من مختلف الجهات فأشرقت كل بقعة فيها.

إن التطورات التي نبحث عن التبادل الثقافي و الاحتكاك العلمي أوجدت من النوادر القيمة فقدمها أهل العلم في الهند إلى العالم مع ثقة كاملة و نالت هذه النوادر من الإعجاب و القبول و حصلت لها مكانة مرموقة وكانت هذه النوادر مادية و معنوية و إن الحالة الثقافية التي كانت عليها الهند هي كانت حالة المسلمين بين الأمم الأخرى، إن الأمم و الأقوام لما اعتنقوا الإسلام حملوا الخير و البركة و أشعلوا مشاعل الرشد و الهداية رالعلم و المعرفة في كل ناحية من نواحي العالم و إذا نرى فتوح المسلمين ونشاطهم في سبيل الدعوة ظهر لنا أن غايتهم كانت هي أن يعرفوا من نعم الهداية و العلم و المعرفة و إن المشاكل و المتاعب يلاقونها في سبيل هداية الناس و نشر الثقافة الإسلامية نوعا من الراحة و هدوء البال و دخل المسلمون الهند مع الهمة العالية و الهدف الاسنى و كان فيهم العلماء والأتقياء و السلاطين و البارعون في الحرفة و الصناعة و التجار فأعطى كل منهم حسب سعته و علمه للهند من الحسن و الجمال و الثقافة و المعرفة.

لنعرف هذه التفاصيل و نعلم متى دخل المسلمون في الهند؟ و من كانوا في ركبهم؟ و ما هي ماثرهم؟ و كيف أفادوا الهند و أهلها؟ نجد جميع هذه التفاصيل في كتب الآداب و التاريخ و من هذه الكتب كتاب معروف للعلامة عبد الحئ الحسني المشهور بنزهة الخواطر، إن هذا الكتاب يقدم صورة رائعة لأعلام الهند و أعيانها و مشاهيرها و إن العلامة الحسني بذل جهودا كثيرة في تأليف هذا الكتاب و إن القاري سيرى أنه رداء حريري مطرز بالجواهر و اللالي يتلألأ في النهار و الليل سواء و يبهج القلب والنظر إذ رآه الناظر من أي ناحية و يشتمل هذا الكتاب على أعلام العلم والمعرفة و السلاطين من سبعة أو ثمانية قرون و إنه يحمل أسلوبا جذابا وعبارة رائعة يجذب القاري إلى أن يدرسه مرة بعد مرة و يبدو جماله وروعته عقب كل دراسة و مطالعة، إنني أرى أنه من ميزة كتابة التاريخ والسيرة أن يقدم الكاتب رجال التاريخ و السيرة و مآثرهم حتى تتجلى حياتهم و نواحيها الظاهرة و الباطنة أمام الأعين و تتلألأ مكانتهم الممتازة ونستطيع أن نقول إن ميزة كتابة السيرة أن لا تختلط شخصية بشخصية أخرى و تمثل بباقة الزهور تتزين بأزهار مختلفة ألوانها و رائحتها من أية ناحية تبدو مكانتها و تظهر زاهية متفتحة فإذا رأينا هذا الكتاب من هذه الناحية نجد أنه يبلغ إلى درجات الكمال، إن المؤلف سجل أحوال أعلام الهند حيث يتضح كل ما مضى عليهم من الوقائع و رتب تاريخ هذه القرون الثمانية كأنه تاريخ العلم و المعرفة و كان نجوم العلم و الفن تطلع في سماء الهند و لا تنتهي هذه الدائرة بل إنها كالبحر تصطدم أمواجها فيما بينها واحدة فواحدة و تغنى و لكن لا تخلو دقيقة من هذا الاصطدام.

عندما ندرس أحوال الأعلام الذين ذكرهم العلامة عبد الحئ الحسني و مآثرهم في هذا الكتاب نطلع على أحوالهم الشخصية مع الوقوف على المجتمع الهندي و الذي كان السائد فيه إن عامة الناس سجدوا أمام العلماء والصوفية حينما روا كما لهم و تبحرهم في العلم و الفن و جعلوا يعتقدون فيهم الربوبية و كذلك اثر العلماء و الأتقياء الهنود لمستوطنات كبيرة لهم وجعلوها مركز العلم و الثقافة.

قام العلامة بدراسة الأمراء و السلاطين و الحكام تشتمل حوالي سبعة قرون و بين مكانة كل سلطان بدقة و أمانة لما كان لهم أهمية في أحوالها المالية و العسكرية و السياسة تبدو فيها مهارة فائقة و معرفة واسعة وذكر الحروب الأهلية فيما بين الأمراء و السلاطبن و ما أدت إلى خسائر وخيمة مفصلا و بحث أيضا من أسباب الحروب الأهلية و قال إن أكثرها كانت تحت إرادة السلطة و هوى الإمارة فيحمل القوى على الضعيف بلا هوادة و رحمة و إهمال عن القانون و الدستور و يقيم سلطته، ذكر العلامة من أسباب ضعف سلاطين المسلمين و تقصيرا تهم مع ذكر محاسنهم ومكارمهم و يرى من صفة هؤلاء السلاطين المسلمين و ميزتهم الخاصة أنهم كانوا يقدرون مجهودات العلماء و الباحثين و يشرفون على جمعها وتدوينها فلذلك اجتمع حولهم عدد كبير من العلماء و الأدباء و الشعراء والكتاب و البارعين في علم النجوم و جعل ينمو و يزدهر جو ديني ثقافي رائع و إذا رأى أحد من مآثر السلاطين في الهند و خدماتهم الجليلة يطمئن إلى هذه الخدمات العظيمة لا تقل عن خدمات الخلفاء في الأندلس و بغداد بل يفوق السلاطين في الهند على غيرهم في إقامة الكتاتيب و المدارس و يليق بالذكر ههنا أن اللغة العربية ما كانت لغة رسمية في أي عصر و لكن

علماءها ألفوا و صنعوا من الكتب على موضوعات مختلفة في العلوم والفنون و كانت هذه المؤلفات تحت رعاية السلاطين و الأمراء و كانت أكثرها باللغة العربية.

و الجدير بالذكر أن المؤلف يوفر موادا ضخمة و معلومات جمة حول معاملة الملوك المسلمين مع عامة الناس من المسلمين و الهنادك. إنهم ما كانوا يفرقون بين الناس بل كانوا يعطون كل ذي حق حقه مسلما كان أو هندوكيا فالسياسة الحكمية و العدالة العامة كانت دينهم و دينهم و المؤلف يذكر بكل جرأة التعديات و المظالم التي لحقت الهنادك في حكومة أي ملك أو أمير في الهند و لكن تعقب بعد ذكر مثل هذه الحوادث بأن هذه التعديات و المظالم لم تحدث برغبة دينية بل هي كانت أعمالا شخصية خالصة ارتكبها هؤلاء الملوك فنكرها عامة الناس و حين تغيرت الأحوال و تمكن سلطان أخر على كرسي السلطة فيقوم بخطوات مؤثرة لدفع الأخطار والتعديات السالفة، في الكتاب أمثلة كثيرة لمثل هذه الأشياء.

و ذكر المؤلف في كتابه عن الملك العادل سلطان العابدين قطب الدين من كشمير أنه أخذ عنان الحكومة في يده بعد أخيه فازدادت في سعة حكومته حتى صارت تبت من جزء كشمير و مع ذلك قام الملك بالقضاء على التعديات التي وقعت في عهد أخيه فأطلق الذين كانوا أسارى في السجون بغير إجرام و من الذين تركوا كشمير لجور السلاطين دعاهم إلى كشمير و رخص لهم أن يعيشوا مع تقاليدهم الاجتماعية و طقوسهم الدينية والثقافية مرة أخرى حتى رخص للنساء أن يحرقن أنفسهن مع أزواجهم لأن هذا التقليد كان يوافق مع عقيدتهم و ديانتهم بل سامح عن الجزية التي كانت تجبي من غير المسلمين و منع ذبح البقرة في كشمير لتأليف قلوبهم.

فخلاصة القول أنه قضى على جميع التعديات التي تسببت الخوف و الروع و بدلها من الهدوء و الطمأنية لأن هذه المخافة بلغت إلى أن غيرت العامة ديانتها بالخوف و الروع فأعلن هذا الملك العادل "لا إكراه في الدين" لكل الخيار لأخذ الدين " لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي" الآية. فيكتب جميع المؤرخين بالإجماع أنه ملك عادل يرعى الرعية حق الرعاية وعبروا عن عهده عهد العدل و القسط.

وفي عهد سلطة المسلمين في الهند نقلت النصوص المهمة من اللغات المحلية إلى اللغة العربية كذلك ترجمت كتب من اللغة العربية إلى اللغات المحلية الهندية و قد ازدادت ثقة الهنود بما كان يعمل السلاطين بهم و ازدادت همتهم حصول العلم و المعرفة و اتضح لهم أيضا أن السلاطين المسلمين هم أمناء القيم الاجتماعية و الدينية و مقدرون الجهود العلمية والتطورات الفنية فتعاونوا مع السلاطين بثقة كاملة و عزم راسخ و قدم العلماء الهندوس من معلومات واسعة عن حياتهم الاجتماعية و النظم العائلية فلو جمعت كل ما كتب الباحثون المسلمون و العلماء عن المجتمع الهندي تتضح صورة كاملة للمجتمع القديم.

هذه صورة مجملة عن السلاطين المسلمين إنهم كانوا مشغولين بتوسيع سلطتهم و أعرضوا عن أصول الشريعة الإسلامية لأغراضهم الشخصية فيتجلى لنا بعد دراسة كتاب " نزهة الخواطر" أنه لا يطلق على جميع السلاطين لأن بعضهم قاموا بتنفيذ الشريعة الإسلامية و أغدقوا على العلماء و الفقهاء و شجعهم لتأليف الفتاوى و وضع القانون و جرى هذا العمل في مختلف مراحل التاريخ في الهند و في أمكنة مختلفة و في مختلف الألسنة و من محاسن هذه القوانين و الفتاوى أنها تراعي للأوضاع الراهنة

و الظروف الموجودة و يفرق عند الاحتياجات فلو رتبت جميع هذه المساعي الفقهية بطريقة لائقة تكون مؤلفة علمية وفقهية قيمة.

و ألقى العلامة الضوء في كتابه على النساء البارعات في العلم والدين و السياسة و دورهن و مآثرهن و يفيد الكتاب أيضا أن السلاطين المسلمين شجعوا هؤلاء النساء بلا تفريق في الدين و أعطوهن مكانة مرموقة بعملهن في المجالات العلمية و الخبرة السياسية فكانت كلمة هؤلاء النساء مسموعة مقبولة في إدارة الأمور السياسية و غيرها. من هؤلاء النساء البارعات جهان اراء بيكم و كلبدن بيكم و جانان بيكم و النساء الأخريات و بعض النساء كانت تتعلق بالأسرة المالكة و بعضها بالأسرة العامة فذكر العلامة من نواب شاهجهان بيكم و سلطان جهان بيكم لولاية بوفال و بصيرتهما العلمية و السياسية و الذوق الأدبي و حبهما العلمي والإشراق على العلماء كلها من التفاصيل بأسلوب جميل و يبطل هذا الاعتقاد عقب دراسة سير النساء إن الإسلام قام بإضاعة الحقوق النسائية في كل عصر و حرمهن عن مكانتهن الأصيلة ولم يقدر مؤهلاتهن العلمية والأدبية و السياسية، هذه الحقيقة تتضح لنا خلال الكتاب أن المسلمين اعترفوا أهمية النساء و جعلوا مكانة لهن حسب مؤهلاتهن و تعاونت النساء في بناء المجتمع مع الرجال جنبا لجنب و ازينت الأمة الإسلامية بالتعاون المتبادل.

ذكر العلامة في كتابه من العلماء و الأتقياء و الشعراء و الأدباء مفصلا و عرف كل واحد منهم و الأساتذة الآجلة و المدارس و النشاطات العلمية في الشباب و بعده و صرح في سيرة بعضهم، أنهم كانوا يتعلقون ببلاد أخرى و لكن هاجر إلى الهند حسب وطأة الظروف و الاحتياجات

الطبيعية و جاءوا بذخيرة من العلم و الآداب و أينما وصلوا و حيثما حلوا في بلاد الهند أفادوا بعلومهم و فنونهم و استفادوا أيضا حسب احتياجاتهم وليس الأمر بسهل أن يهجر رجل وطنه المألوف و يسكن في بلد أخر ويستفيد من العلم و الفن أنه يجب عليه أن يكون لديه حظ أوفر من العزيمة الهمة و قد كان العلماء يحملون هذه الأوصاف الحميدة.

و يمتاز العلماء في الهند أنهم بذلوا جهودا في سبيل العلم و التدريس و قد ذكر المؤلف في كتابه "نزهة الخواطر" من العلماء الذين سافروا إلى أماكن بعيدة لحصول العلم و لقوا مع أهل العلم و حصلوا على الشهادات ودرسوا كتبا أساسية على الشيخ درسا درسا و شغلوا في تأدية فريضة التدريس في ناحية من البلاد و بعد ما حصلت لهم الإجازة من شيوخهم وأساتذتهم فتأسست المراكز العلمية والمدارس الدينية في كل مكان و كانت المقررات الدراسية في هذه المدارس من اقتراحات هؤلاء العلماء و من كتاباتهم و كان هؤلاء العلماء قادرين على الأذواق النقية و التعبير عما في صدورهم فيولفون الكتب المفيدة حسبما تتقاض الأحوال و الظروف و إنها تعتبر إضافة كبيرة في كتب العربية و تعترف أهميتها.

في الأخير نستطيع القول بأن هذه الحقائق المذكورة في "نزهة الخواطر" مصدر تاريخي هام في حقل نظام التعليم و التربية و لذلك حين رأى العلامة مناظر حسن الكيلاني الأجزاء من هذا الكتاب المخلوط اعجب بالكتاب لكثرة المعلومات و طريقة البيان و العبارة و صداقة القول و عبر عن أحاسيسه و انطباعاته في رسالة أرسلها إلى ابن المؤلف الكريم فضيلة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي رحمه الله، و تتجلى أهمية الكتاب عن كل كلمة من الرسالة. هذه حقيقة أن من ينظر هذا الكتاب نظرة

عميقة يضطر باعتراف أهمية هذا الكتاب بأنه من أهم مصادر للمعلومات الثقافية و العلمية و الاجتماعية و السياسية و لو كان من أهل الهند سينشد بلا تردد هذا البيت لجرير :

أولئك آبائي فجئني بمثلهم

إذا جمعتنا يا جرير المجامع

ويقدر بعد دراسة أحوال هؤلاء العلماء و الأتقياء يظهر أنه لا توجد قرية أو مدينة إلا فيه عدد كبير من العلماء و الأتقياء و الصالحين و المبلغين مدفونين و يصدق ما قال لسان الدين الخطيب في تاريخ غرناطة و الجبرتي في تاريخ مصر و صرحا بالافتخار و المباهاة كان يوجد في أطراف جميع هذه البلاد و نواحيها عدد كبير من العلماء و الأدباء و هم يستريحون تحت ثراها و يخطر ببالي مثل هذه الخاطرة عقب دراسة نزهة الخواطر و لعل هذه الانطباعات خطرت على بال الشاعر العباسي أبي العلاء المعري، فانشد:

خفف الوطأ ما أظن

أديم الأرض إلا من هذه الأجساد

و حرام بنا قدم العهد

هو إن الأباء و الأجداد

مكتبة الإسكندرية

دراسة نقدية تحليلية لبيانات المؤرخين الأوربيين والعرب حول نسبة إحراق المكتبة إلى عمرو بن العاص

بقلم: سماحة الأستاذ شبلي النعماني تعريب : ولي أختر الندوي

إن حادث إحراق مكتبة الإسكندرية من الأكاذيب التي شاعت عن التاريخ الإسلامي في أوربا في سالف الزمان، و لم تزل تلقى القبول حتى عصرنا هذا.

و رغم أنه قد تيسرت لأوربا ، منذ زمن طويل، وسائل ومصادر للإطلاع على أحوال المسلمين، و لكن الزمن الذي ظهر فيه علم التاريخ الجديد يتزامن الحروب الصليبية. و كل ما عرفت أوربا عن المسلمين في هذا الزمن هو أنهم محاربون و مغيرون ووحوش. و فوق ذلك كله، إنهم أعداء الصليب المقدس و بيت المقدس قبلة المسيحيين. و هذا هو الزمن الذي خرجت فيه أدبيا من

عصرنا المظلم. فقد صرح معظم المؤرخين أن نهضة أوربا العلمية و الحضارية بدأت في هذا الزمن بالذات.

و في هذا الزمن شاعت حكايات عجيبة عن المسلمين في أوربا. و إن الأوضاع السائدة آنذاك كانت طبعا تستلزم ذلك. و إن ما شاعت من الحكايات المنتحلة في أوربا عن المسلمين و قوميتهم واجتماعهم و حضارتهم قد تلقت القبول العام، مع انقضاء الوقت، لحد أن انطلقت بها ألسنة عامتهم و خاصتهم على حد سواء. ثم لما استهل عهد التأليف و التصنيف، وجدت هذه الحكايات طريقها إلى كتب التاريخ و القصص و الروايات، حتى تطرقت إلى كتب الفلسفة أيضا بكثرة. وإن Bacon، الذي يعتبر مؤسس الفلسفة الحديثة في أوربا، كتب في مقال من مجموعة مقالاته التي تسمى Bacon's Essays تمثيلا للجرأة و البسالة:

"ذات يوم كان محمد (صلى الله عليه وسلم) يؤكد للناس بنبوته، فقال للحضور : اذهبوا إلى هذا الجبل، و قولوا له إن محمدا استدعاك. فذهب الناس إلى الجبل، و أعادوا له قول محمد، فلم يكن الجبل ليتزحزح عن مكانه. لما رأى محمد (صلى الله عليه وسلم) ذلك فلم يستحي، و قال بكامل الجرأة و رباطة الجأش : لا بأس، إذا لم يأت الجبل إلى محمد فإن محمدا يمكنه أن يذهب إلى الجبل."

لم يكن بيكون مؤرخا، و لا أرى أنه كتب هذه الواقعة بغية النيل من شأن الرسول صلى الله عليه وسلم، بل إنه أورد هذا المثال للإشادة بالجرأة و رباطة القلب. و لكن بما أن أمثال هذه الحكايات

والأكاذيب كانت قد شاعت شيدعا عاما في أوربا كلها، فكان الخاصة و العامة يروونها بدون أدنى كلفة، و كانوا يؤمنون بصدقها.

منذ زهاء قرن و نصف، توجهت أوربا إلى البحث والدراسة، و بدأ ينكشف خطأ أمثال هذه الحكايات يوما فيوما، حتى أخذ بعض مؤرخي أوربا الكبار يعترفون بأن هذه الحكايات مجلبة للعار و الخزي لأوربا. فقد كتب السيد/ كارلايل في كتابه Lectures in the Heros:إن الأكاذيب التي نحلها رجال الدين هذا الرجل (يريد محمدا صلى الله عليه وسلم) مسببة للعار و الخزي لنا. كان كارلايل كتب هذه المحاضرة حول الرسول صلى الله عليه وسلم بوجه خاص. فخصه بالذكر، و إلا شاعت أمثال هذه الأكاذيب في أوربا عن دين الإسلام و التاريخ الإسلامي أيضا. و إن الدراسات الجديدة، و إن قللت عدد هذه الأكاذيب، و لكنها لم تستطع أن تقضي عليها بصورة نهائية. لأن الوقائع التي شاعت في أوربا، من أدناها إلى أقصاها، على هذا النطاق الكبير، لا يرغب في دراستها و البحث عنها إلا الذين لا يقيمون و زنا لمعارضة عامة الناس لهم، و قليل ما هم.

و هناك سبب آخر، و هو أن نطاق الباحثين في كل أمة يختلف عن نطاق عامة الناس. و إن الوقائع التي يسلم بصحتها الباحثون بعد دراستها و النظر فيها تكون جديرة بالقبول، و لكن دراستهم تنحصر في دائرة خاصة، و لا تلقي الرواج بين عامة الناس، و في عامة المؤلفات. و إن باحثي أوربا الكبار لا يسلمون بصحة الروايات التي شاعت فيها عن الوقائع و الأحداث الإسلامية،

فقد نفي غيبيون، كارلايل، و غاد خري، و هيجنز، و بارسورث، ورينان، و سيديو و غيرهم بصورة عامة صحة هذه الوقائع، غير أنه لم يضعف سلطان هذه الأكاذيب في عامة الكتب و الحكايات.

و من بين هذه الوقائع و الأحداث الملفقة المنحولة حادث إحراق المكتبة المتواجدة في مدينة الإسكندرية.

إن الطريقة التي أثارت و أشاعت بها أوربا هذه الواقعة، لمثيرة للعجب حقا، فانه لا يخلو أي من كتب التاريخ و الروايات والقصص والأمثال السائرة من ترديد صدى هذه الواقعة. خل المؤلفات الأدبية، إن كتب المنطق و الفلسفة أيضا قد تطرقت إليها هذه الواقعة،فقد تضمنت أسئلة مادة علم المنطق لاختبارات اف. ايه. لجامعة كالكوتا الهندية المنعقدة عام ١٨٨٢م سؤالا لحل المغالطة التالية:

"إذا كانت الكتب موافقة للقران الكريم فلا حاجة إليها، و إذا كانت معارضة له فيجيب إبادتها."

و من الجدير بالاعتناء هنا، لماذا أبدت أوربا هذا القدر من التعاطف مع مكتبة الإسكندرية ؟ فإنه لا مراء فيه، أنه لا علاقة للمسيحيين بالمكتبة التي نبحث عنها. إنما كان أنشأها ملوك مصر الذين كانوا يعبدون الأصنام، و كانوا قبل عيسى عليه الصلاة والسلام بزمن ليس بقليل. قد يقال إن هذا نتيجة تقدير أوربا للعلم وكتبه، لكن لماذا يخصون مكتبة الإسكندرية فحسب بعنايتهم؟ فإنه قد أبيدت مكتبات كبيرة في هذه الدول نفسها، فهل حرك ذلك مساكن

أوربا؟ و من الذين شجبوا قيام إسكندرية بإبادة المكتبات الإيرانية؟ ومن ذرفت عيونه على ما أبا و المسيحيون أنفسهم من الآثار الإسلامية العلمية في الأندلس؟ و ما أتلفوا الآلاف من الكتب والمؤلفات؟ لماذا هذا التعاطف الخاص مع مكتبة الإسكندرية؟

الواقع أن المسيحيين أنفسهم (كما سبنينه في الصفحات القادمة) قاموا بإبادة هذه المكتبة. و كانت لكبار رجال الدين المسيحي يد في إبادتها. و قد كان ذلك مفخرة في ذلك الزمن. و لكن لما انبثق فجر الحضارة و الثقافة رأت أوربا أن هذا و صمة عار كبيرة على جبينها. ولم ترحيلة للنقل من هذا العار إلا أن تلصق هذه التهمة بأمة أخرى. لما فتح المسلمون مصر و الإسكندرية لم يكن للمكتبة المذكورة أعلاه عين و لا أثر هناك. و بما أن أوربا كلها كانت آنذاك ملاي بالتعصب ضد المسلمين، و لم تكن شهدت بعد أي نهضة علمية، فلم يكلف أحد نفسه بالبحث من صحة هذه الواقعة، وانتشرت في سائر أرجاء أوربا انتشار الحريق في الغابة.و ناحت أوربا وذرفت دموعها على هذه الواقعة بنبوع من التعاطف، كان هذه المكتبة كانت خاصة بها. و هذه هي عقيدة عامة الناس إلى يومنا هذا. و إن شيوع هذه العقيدة جلب فائدة كبيرة لها، لأنه لم يمر بخلد أي إنسان أن يلصق هذه التهمة بالمسيحيين، فإنه من البديهي، أن أمة لا تبيد بأيديها تراثها و لا تتلفها.

و إذا بحثنا عن حقيقة هذه الواقعة المنحولة، التي كانت تدوي بها سماء أوربا كلها في سالف الزمان، نجد أنه لا أساس لها من الصحة و الواقع. و لكن هناك سؤال، هو كيف يمكن أن تبقى

واقعة لا أساس لها من الصحة مدوية الصوت و مسلمة بها في سائر أقطار أوربا لهذه المدة الطويلة؟ إن هذا السؤال صعب فيما يبدو، ولكن الإجابة عنها سهل للغاية. إنه لا داعي للعجب على شيوع هذه الواقعة في عصورها المظلمة، فإنه كانت تشيع فيها أمثال هذه الوقائع الفاقدة الأساس بكثرة في تلك الحقبة، و كانت تتلقى قبولا عاما. و كما قلنا في مستهل هذا المقال، بدأ الباحثون منذ عصر النهضة و الحضارة يبحثون عن هذه الوقائع، و دحضها كبار المصنفين المشهورين و نفوا صحتها. و لكن من العجب أن أناسا ما زالوا يؤمنون بصحتها، مع أنه كان ينبغي أن يبت في زيفها وبطلانها بصورة نهائية.

و لكن هذا الموضوع مازال ساخنا لسببين:

الأول: إن مخلفات الجاهلية لا تتلاشى حتى في زمن الحضارة و النهضة بصورة كاملة، و لا يمكن ذلك أيضا.

و الثاني: إن منهج الدراسات الأوربية عن الوقائع التاريخية لا يوصل إلى حكم نهائي في معظم الأحوال، فإنه بجانب الواقعة الأصلية، و يأخذ في بحث الدراية و القياس، و نتيجة عناية الباحث إلى الأمور الفرعية، وهكذا يتضخم الموضوع، و لا تبلغ الدراسة الأصلية إلى نهايتها. وهذا ما وقع في هذه الواقعة نفسها، كما سنذكره فيما بعد.

لم تزل هذه القضية قيد البحث و الدراسة في أوربا منذ مدة طويلة، و كتب عدة كتاب مقالات مستقلة في هذا الموضوع،كما جاء

ذكره كثيرا في كتب التاريخ التي صنفت عن المسلمين. و يذكر هؤلاء الكتاب، بعد بيان هذه الواقعة، رؤيتهم الخاصة عن هذه القضية، سواء كانت موافقة أو معارضة. إنني أرى من المناسب أن أذكر هنا بالإجمال جميع الكتابات التي اطلعت عليها في هذا الموضوع، فإني أشير إليها بكثرة في هذا المقال.

كان السيد/ غيبون (ت ١٧٩٤) أول من أنكر صحة هذه الواقعة، و علق عليها تعليقا علميا مقتضبا في كتابه تاريخ الإمبراطورية الرومية في الباب الخاص بفتح المسلمين الإسكندرية. و كتب Prof. White ، أستاذ اللغة العربية بجامعة أوكسفورد مقالا أيد فيه غيبون(١). كما كتب في هذا الموضوع كل من واشنطن ارفنغ (٢)، و أرثر جملين (٣) و السيد / كرتشتون (٤) و دربير (٥) أستاذ كلية نيويورك بالولايات المتحدة. و كذلك نشرت بحوث عديدة حول هذه الواقعة في جريدة Spectator الشهيرة الصادرة في لندن، و كان البعض منها موافقا و الآخر معارضا (٦). و كذلك وجه مسيو سيديو العالم الفرنسي الشهير، الذي كتب تاريخا مفيدا وجامعا للغاية للإسلام، انتقادات تاريخية إلى هذه الواقعة (٧) . كما كتب البروفيسور Desacy،العالم الفرنسي الشهير للغة العربية، بحثا مستفيضا عن هذه الواقعة.(٨)

إن أجمع المقالات و أكثرها تفصيلا ما كان قدمه السيد/ كريل الألماني في مؤتمر المستشرقين. قد أنشي منذ زهاء خمس عشرة سنة مؤتمر في أوربا يستهدف تقصي دراسات مفيدة و نادرة من تاريخ آسيا. عقد هذا المؤتمر اجتماعه الرابع في فلارنس في

سبتمبر عام ١٨٧٨م. و في إحدى جلسات هذا الاجتماع قدم السيد/ كريل، عالم اللغة العربية المعروف في ألمانيا، مقالا حول هذا الموضوع باللغة الألمانية، و نشر هذا المقال مع تقرير المؤتمر.

إن أهم سؤال عن هذه الواقعة ما هو مصدرها الأصلي؟ أهي كتب التاريخ الأوربية أم العربية؟ و رغم أن هذا السؤال مهم جدا و لكن الإجابة عنها لا يتطلب بحثا كثيرا، فإن الذين يكذبون هذه الواقعة و الذين يصدقونها كلهم يردون عليه ردا واحدا. إن عامة المؤرخين الأوربيين، سواء كانوا موافقين أو معارضين، يقرون بأنه لا مصدر عندهم لهذه الواقعة. و هم محتاجون في هذا المقام لكتب التاريخ العربية فحسب. و لكن قبل أن نسوق الدليل على ذلك، نود أن نقول كيف، و بأية وسيلة، عرفت هذه الواقعة في أوربا؟

إن أول من أشاع هذه الواقعة في أوربا هو أبو الفرج، وكان ابن طبيب يهودي يسمى هارونا، ولد أبو الفرج في مدينة ميلتن عام ١٢٢٦م. و بما أن أباه كان قد صبا عن ديانته الأولى و تنصر، فحصل أبو الفرج على التعاليم المسيحية منذ نعومة أظفاره، و نبغ في اللغتين العربية و السريانية، إضافة إلى ضلوعه بالتعاليم المسيحية. و بفضل نبدغه و كفاءته العلمية تم تعيينه أسقفا في جويا، و هو ابن إحدى و عشرين سنة. و وصل بصورة تدريجية إلى رتبة ما فريان، التي لا تبقى فوقها إلا رتبة البطريق فقط. كتب أبو الفرج تاريخا مفصلا جدا باللغة السريانية، وقد اعتمد في كتابته على الكتب السريانية و العربية و الفارسية و الإغريقية. ثم لخص هذا التاريخ باللغة العربية، و سماه " مختصر الدول" . قام الدكتور بوكاك،

أستاذ كلية اوكسفورد، بنشر هذا الكتاب مصحوبا بالترجمة اللاتينية. و توجد نسخ عديدة لهذا التلخيص، و لكن كلها ناقصة، بل إن بعضها يتضمن روايات لا توجد في الكتاب الأصلي باللغة السريانية، ويشك في أن هذه الوقائع المزيدة كان أضافها أبو الفرج نفسه أم إنها من انتحال الذين جاءوا من بعده؟

و هذا هو التلخيص الذي ذكر فيه، لأول مرة، حادث إحراق مكتبة الإسكندرية، و عن طريق ترجمته اللاتينية، شاعت هذه الواقعة في أوربا بأسرها.

يقول السيد/ غيبون في تاريخه : " منذ نشرت الترجمة اللاتينية لتاريخ أبي الفرج تنقل هذه الواقعة مرة بعد أخرى ". كذلك كتب واشنطن ازمنغ و ارثر جلين، و السيد / كرشتن و مصنفون أوربيون غيرهم بصراحة أن هذه الواقعة وصلت إلى أوربا عن طريق أبي الفرج. وقد صادف ذلك زمن الجهالة و العصبية في أوربا فكانت كل واقعة عن المسلمين من هذا النوع، سواء كانت صحيحة أو زائفة، تلقي الرواج بسرعة، و كانت تولد النفرة والكراهية ضدهم. و ملخص القول إن هذه الواقعة شاعت في كل صقع من أصقاع أوربا، و لم تلبث أن أصبحت جزءا للأدب الأوربي. و فيما يلي أنقل ما قاله أبو الفرج عن هذه الواقعة بعضها ونصها(٩):

" في هذا الزمان، اشتهر بين الإسلاميين يحي المعروف عندنا بغرماطيقوس أي الخوي، و كان إسكندريا، يعتقد اعتقاد

النصارى اليعقوبية،ويشيد عقيدة (ساوري). ثم رجع عما يعتقده النصارى في التثليث، فاجتمع إليه الأساقفة بمصر ، و سألوه الرجوع عما هو عليه فلم يرجع فأسقطوه من منزلته. و عاش إلى أن فتح عمر وبن العاص مدينة الإسكندرية و دخل على عمرو ، وقد عرف موضعه من العلوم فأكرمه عمرو ، و سمع من ألفاظه الفلسفية التي لم تكن للعرب بها آنسة ما هاله ففتن به. و كان عمرو عاقلا حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه، و كان لا يفارقه . ثم قال له يحيى يوما : إنك قد أحطت بحواصل الإسكندرية، و ختمت على كل الأشياء الموجودة بها. فإنك به انتفاع فلا أعارضك فيه، و ما لا انتفاع لك به فنحن أولى به. فقال له عمرو : و ما الذي تحتاج إليه؟ قال : كتب الحكمة التي في خزائن الملوكية. فقال له عمرو: لا يمكنني أن آمر فيها إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب "و كتب إلى عمر عرفه قول يحي، فورد عليه كتاب عمر يقول فيه: و أما الكتب التي ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله، ففي كتاب الله عنه غنى، و إن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليه فتقدم بإعدامها. فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمامات الإسكندرية و إحراق في مواقدها. فاستنفدت في ستة أشهر ، فاسمع ما جرى و اعجب".

و لم يزل الناس يسلمون بهذه الواقعة كما ذكره أبو الفرج، ولم يدر يخلد أي شخص أن يحققها. و كان المؤرخ الشهير غيبون، الذي أسس منهجا خاصا في التاريخ، أول من قام بالتحقيق فيها وكتب :" إني أميل إلى إنكار صحة هذه الواقعة و نتيجتها". و قد

ساق غيبون أدلة عديدة على إنكاره، منها أن أبا الفرج ولد بعد خمس مائة سنة من هذه الواقعة، و أن أي مؤرخ، حتى أحد من المؤرخين المسيحيين، لم يذكر هذه الواقعة، فكيف تكون شهادة أبي الفرج جديرة بالقبول و الاعتبار. و بعد ما دحض غيبون صحة هذه الواقعة، هبت أوربا من سباتها، و توفر عدة علماء على درس وتحقيق هذه الواقعة.

و رغم أن الناس انقسموا بعد غيبون إلى فريقين، موافقين ومعارضين، بالنسبة إلى هذه الواقعة. و بما أنه كان مسلما به بصورة عامة أنه لم يضف أي كتاب عن الإسلام في أوربا في القرن الأول الهجري، من هنا نرى أن كتب التاريخ التي كتبت، أو التي لا تزال تكتب حتى الآن، في سير الرسول صلى الله عليه و سلم والخلفاء الراشدين، كلها تعتمد على مصنفات المسلمين بصورة عامة.فالفريق الذي يميل إلى صحة هذه الواقعة لا بد أن يعتمد على كتب التاريخ العربية بصورة لازمة.

إن السيد/ كرشنن الذي صب جام غضبه على غيبون لنفيه هذه الواقعة، يقول في كتابه تاريخ الإسلام :" لو كانت هذه الواقعة قائمة على رواية هذا الرجل الأجنبي (يريد أبا الفرج) الذي كتب هذه الواقعة بعد ست مائة سنة، لكنا تخرجنا في قبول رواية المؤرخ الأرمني (أبي الفرج) ، لكن هذه الواقعة لا تقوم على روايته فحسب، بل بالعكس ذكرها أيضا المقريزي و عبد اللطيف اللذين صنفا كتبا عن تاريخ مصر القديم". و اعترف بهذا السيد / كريل علنا، و قال :" وقد رما تسعفني ذاكرتي قد ذكرت هذا الواقعة بادي

ذي بدء في تاريخ عبد اللطيف الذي ولد بعد خمس مائة سنة من هذه الواقعة."

و بعد ما تقرر أن مصادر هذا الواقعة، مهما كانت، هي كتب التاريخ العربية، يسهل لنا البت في هذا البحث، لأننا أجدر بأن نطلع على مؤلفات العرب بالنسبة إلى أوربا، فإن صاحب البيت ادري بما فيه!

إن المؤرخين الأوربيين الذين يريدون إثبات هذه الواقعة يذكرون كتب عبد اللطيف البغدادي و المقريزي و حاجي خليفة مصادر لهم، و قالوا : " إن هؤلاء المؤرخين جديرون بالثقة والاعتبار، و لا يمكن أن ترد شهادتهم". قدر ما قمت بالبحث والتقصي وجدت أن أوربا تستند إلى هؤلاء المؤرخين فحسب، غير أن مؤرخا إنجليزيا أشار إلى ابن خلدون أيضا، و قال دون حياء من هذه الكذبة البلقاء : و حكى ابن خلدون هذه الواقعة في معرض بيان ترجمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه." لكن كتاب ابن خلدون كتاب متداول معروف، و لم ترد أية كلمة عن هذه الواقعة في كل ما كتبه ابن خلدون عن عمر رضي الله عنه. و بالجملة فيما نبعد ابن خلدون يبقى هناك ثلاثة مصنفين تقوم على رواياتهم هذه الواقعة. والآن نركز جهودنا على تحقيق هذه الواقعة في ضوء الأصول التاريخية، و سوف نثبت فيه إلى أي مدى لجأ هؤلاء المصنفون الأوربيون إلى الدلس و الخداع في استنادهم إلى هؤلاء المؤرخين.

هناك طريقتان لإثبات الوقائع التاريخية : الرواية و الدراية.

فالرواية هي أن تسند الواقعة إلى الشخص الذي شهدها بنفسه. و قد ألفت جميع كتب التاريخ العربية، التي تعتبر جديرة بالاعتماد، طبقا لهذا الأصل نفسه. و لذا تحكى جميع طرق السند بـ" أخبرنا" و " حدثنا"، و تذكر أسماء الرواة كلهم الذين بواسطتهم يتصل سند الرواية بالشخص الذي شهد بنفسه هذه الواقعة. و قد كان هذا منهج كتابة التاريخ الإسلامي حتى القرن الرابع الهجري. و رغم أنه قد قل استخدام هذا المنهج في العصور التالية، لكن روعي هذا المنهج في رواية الوقائع التي حدثت في القرون الثلاثة الأولى، أعني أنه لا تؤخذ الوقائع التي حدثت في هذه العصور إلا مدعمة بالسند فقط.

أما المقصود بالدراية فأن ينظر في أية واقعة، هل تتوافق هي مع مقتضيات الطبيعة البشرية، مميزات العصر، و سيرة وأحوال الشخص الذي تعزى إليه تلك الواقعة، و غيرها من القرائن، أم تتعارض معها؟ فإذا لم تصدق الواقعة على هذا المحك فتعود مشكوكة فيها، أعني من المحتمل أن التغيرات التي قد طرأت على تلك الواقعة قد غيرت ملامحها.

و في دراسة هذه الواقعة أيضا سوف نستخدم هذين المبدأين.

و إذا أن هناك فريقين بخصوص هذه الواقعة. الفريق الأول ينفي حدوث هذه الواقعة، و الفريق الثاني يدعى أنها وقعت بدون شك. و من المعلوم أن الفريق الذي يدعي حصول واقعة يتحتم عليه أن يثبت دعواه. فينبغي أن ننظر أولا في تلك الشهادات التي يؤتى

بها تأكيدا لهذه الدعوى. و فيما نعلم (و يمكننا أن ندعى أن شخصا لا يستطيع أن يزيد من ذلك) أن جميع المؤرخين الأوربيين الذين يؤدون إثبات هذه الواقعة ليس لديهم دليل نقلي أكثر من أن عبد اللطيف البغدادي و المقريزي و حاجي خليفة ذكروا هذه الواقعة. هذا أمر يتطلب البحث هل ذكر هؤلاء المؤرخين بصدد هذه الواقعة ما يمكن أن يقوم دليلا لهذه الواقعة؟ و هل في شهاداتهم كفاية لإثبات هذه الواقعة؟

إن مؤرخي أوربا الذين بودهم أن يثبتوا هذه الواقعة قد ذكروا أسماء عبد اللطيف و المقريزي و حاجي خليفة مرة بعد أخرى زورا و بهتانا. أما الذين ينكرون هذه الواقعة فهم لا يعتبرون شهادة هؤلاء المؤرخين جديرة بالاعتبار. و إن هذا المنهج للبحث والدراسة قد أسبل الغطاء على تزوير هؤلاء المؤرخين الأوربيين، فإن البحث قد انحصر في أن عبد اللطيف و غيرهم جديرون بالاعتبار أم لا ؟ مع أنه كان يجب أن ننظر في أن عبد اللطيف وغيرهم قد أتوا بشهادة أم لا؟

فالأمر الأول الذي يتطلب البحث هو ما إذا كانت تصريحات هؤلاء المؤلفين الثلاثة (الذين تذكر أسماءهم بين حين لآخر) ثلاث شهادات مستقلة؟

إن تاريخ المقريزي الذي طبع بمصر بين أيدينا. و في الجزء الأول منه عقد المؤلف فصلا على الصفحة ١٥١ بعنوان "عهود السواري" الذي هو إحدى منارات الإسكندرية الشهيرة. وأورد فيه ما كتبه عبد اللطيف في وصف هذه المنارة بعضها

ونصها. و لما كان عبد اللطيف قد ذكر مكتبة الإسكندرية ضمنا في كتابه، و بما أن المقريزي سرد عبارة عبد اللطيف دون زيادة أونقصان، فقد نقل أيضا الكلمات التي قالها عبد اللطيف عن مكتبة الإسكندرية. و لذا لم يجد العالم الفرنسي المعروف موسيو لانجال مفددحة من الاعتراف بأن رواية المقريزي ليست شهادة مستقلة، بل هي حكاية لما كتبه عبد اللطيف(١٠). و مع أن موسيو لانجال يخالفنا في قضية مكتبة الإسكندرية، لكنه اعترف به على مضض. إن المؤرخين الأوربيين الذين لم يدرسوا كتاب المقريزي الأصلي يذكرون اسمه مرة بعد أخرى إيمانا بالغيب، ولكن بما أن موسيو لانجال كان قد طالع كتاب المقريزي ، فلم يكن له أن ينحو منحى الآخرين، و إن المقريزي قد أوسع في هذا الكتاب نفسه بيانا أحوال فتح الإسكندرية،لكنه لم يكتب، و لو كلمة واحدة ، عن المكتبة، الأمر الذي يدل بصراحة على أنه لا يعتبر هذه الواقعة واقعة تاريخية يؤخذ بها في الاعتبار.

و بعد ما خرج المقريزي، يبقى هناك عبد اللطيف و حاجي خليفة.

و بالرغم من أن معظم المؤرخين الأوربيين ذكروا حاجي خليفة، و لكن أيا منهم لم يذكر عبارته الأصلية. فإنهم لو ذكروها لضعفت دعواهم في أغلب الظن، إننا مدينون للبروفيسور ديساسي (و هو مؤلف فرنسي شهير استنفد جهده في إثبات هذه الواقعة) الذي أزال القناع عن هذا السر، و ذكر نص حاجي خليفة، و هو كما يلي:

"فكانت العرب في صدر الإسلام لا تعتني بشيء من العلوم إلا بلغتها، و معرفة أحكام شريعتها، و صناعة الطب، فإنها كانت موجودة عند أفراد منهم لحاجة الناس طرأ إليها، و ذلك منهم صونا لقواعد الإسلام و عقائد أهله عن طريق الخلل من علوم الأوائل، قبل الرسوخ و الأحكام. حتى يروى أنهم أحرقوا ما وجدوا من الكتب في فتوحات البلاد."

إن هذا النص لا يذكر مكتبة الإسكندرية البتة، بل يتحدث عن إحراق الكتب بصورة عامة، و هو الأخر مسبوقا بكلمة "يروى"، الأمر الذي يدل على أن هذه الرواية رواية شائعة، كما أن أسلوب النص لا يدل قطعا على أن المؤلف يسلم بهذه الواقعة، بل إن حاجي خليفة يذكر عدم اعتناء المسلمين بالكتب في العصور الأولى للإسلام، و يورد في هذا السياق رواية شائعة بكل ما هي عليه من الوهن والضعف. و إن مثل ذلك كان يقول شخص :" إن نابليون أراد أن يصبح قائد المسلمين في مصر، و احتال لذلك كل حيلة، حتى يقال إنه أشهر إسلامه في جامع الأزهر، و أدى الصلاة في الجماعة." إن هذا الأسلوب أسلوب عام، يذكر فيه الخطيب أوالمؤلف أضعف الروايات و أوهنها، و لا يتحرج منه، و بالجملة إن إسناد دعوى إحراق مكتبة الإسكندرية، و بخاصة إلى حاجي خليفة، جرأة تدعو إلى العجب، و لا يقدم عليها أحد غير المؤرخين الأوربيين.

و الآن تبقى شهادة عبد اللطيف البغدادي فحسب، و الحق إن هذا الرجل هو المعول الأخير للمؤرخين الأوربيين، إن عبد اللطيف

قد صنف كتابا في تاريخ مصر، و سماه " كتاب الإفادة و الاعتبار في الأمور المشاهدة و الحوادث المعانية بأرض مصر". و انتهى من تأليفه في ١٠/ شعبان ٦٠٣هـ، و ضمنه الوقائع و الأحوال التي شاهدها في مصر. عقد فيه فصلا تحت عنوان " عمود السواري" وذكر فيه أحوالها، و قال إن هذا العمود يحيط به أربع مائة عمود صغير من جوانبه. و في سياق ذلك كتب العبارة التالية:

" و يذكر (١١) إن هذا العمود من جملة أعمدة كانت تحمل رواق أرسطاطاليس الذي كان يدرس به الحكمة. و إنه كان دار علم، و فيه خزانة كتب حرقها عمرو بن العاص بإشارة عمر بن الخطاب."

إن كل امرئ يستطيع أن يدرك من خلال العبارة المذكورة أعلاه، ما هي مكانة هذه الواقعة لدى عبد اللطيف؟ فقد ساق عبد اللطيف قوله كله مسبوقا بكلمة " يذكر". و هذا لا يدل، بأية حال، على أنه قد ذكر هذه الواقعة بصفتها واقعة تاريخية، أو أنه كان يسلم بصحتها. يقول السيد/ كريل الألماني، بعد ما نقل قول عبد اللطيف في مقال له : " إنه يبدو أن هذه حكاية عابرة، لم يقصد بها هدف خاص أو التذكير بحادث وقع فعلا، بل إنها ليست أكثر من إعادة قول شائع كان يعيدها سياحو ذلك العصر بين الحين و الحين. و إن هذه الواقعة معارضة للعقل و غير جديرة بالاعتبار، مثل الإشاعات التي تلقت الذيوع عن بيت المقدس بين السياحيين في القرون الوسطى."

و من الطريف، إذ أن عبد اللطيف ذكر قولا شائعا عن المكتبة، فإن جميع الوقائع التي ذكرها في هذا السياق كلها بعيدة عن الصدق و الصواب. فلم يكن يوجد في هذا المكان رواق ارسطاطاليس، كما أنه لم يقم بالتدريس فيه قط. و قد استدل كاتب نشر مقاله في جريدة Spectator اللندنية في هذا الموضوع على خطأ قول عبد اللطيف بطريقة طريفة جدا. فقد قال : "دع عنك إحراق مكتبة الإسكندرية جانبا، إن الوقائع الأخرى التي ذكرها عبد اللطيف بهذا الخصوص لا يصح أي واحد منها على الإطلاق."

ها هي حقيقة الأسناد و الروايات التي أقام عليها المؤرخون الأوربيون بناء أبحاثهم. و إن الدلس الذي تذرع به هؤلاء المؤرخون في هذا البحث لمثير للدهش و العجب لحد كبير. و يستطيع القراء من خلال نصوص عبد اللطيف و أصحابه التي قدمناها بعينها أن يدركوا إن المقريزي لم يذكر بنفسه هذه الواقعة، بل إنما نقل نص عبد اللطيف في وصف " عمود السواري" و الذي يشمل ذكر المكتبة فمنا. أما حاجي خليفة فلم يسم الإسكندرية، غير أنه ذكر المكبتات بصورة عامة، و هو الآخر مسبوقا بكلمة "يذكر" ، الأمر الذي يدل على أن ذلك ليس رواية ثابتة محكمة. لكن المؤرخين الأوربيين ذكروا عبد اللطيف و أصحابه دائما بحيث أنهم ادعوا صدق هذه الواقعة، و كتبوا رسائل مستقلة في هذا الموضوع.

كتب البروفيسور ديساسي في تعليقه :" و من الاعتراضات التي توجه إلى رواية أبى الفرج اعتراض قدمى فيما يظن، و هو أن المؤرخين العرب ساكتون في مثل هذه الواقعة العظيمة." ثم رد

البروفيسور نفسه على هذا الاعتراض قائلا :" لكن قوة هذا الاعتراض يضعف و يتضاءل بعد شهادة عبد اللطيف و المقريزي." و من العجب أن البروفيسور المذكور كتب بعد ذلك:" و رغم أنه يمكنهم أن يقولوا إن رواية المقريزي ليست إلا نقلا لما كتبه عبد اللطيف."

و يقول السيد / كرشنن:" إن هذه الواقعة لا تقوم على السند المذكور أعلاه (أي بيان أبى الفرج)، بل بالعكس، إن المقريزي وعبد اللطيف اللذين صنفا كتبا في تاريخ مصر القديم ذكروا هذه الواقعة."

و يقول البروفيسور وايت بملأ شدنية :" و بالعكس من الدليل السلبي الذي قدمه غيبون، نجرأ على تقديم شهادة شبه لمؤرخين عربيين، و هما مصنفان جديران بالثقة، و لا يمكن أن يوجده اعتراض إلى موثوقيتهما، كما إنهما من الأتباع المتعصبين جدا لدين الإسلام، و أعني بهما عبد اللطيف و المقريزي، اللذين لا يوافقاننا في أثر إحراق المكتبة فحسب، بل يشيران بالضبط إلى المكان الذي كانت فيه المكتبة المذكورة أعلاه."

لأي مدى استخدم البروفيسور وايت دهاءه و كياسته في هذا المقام؟ فقد ذكر عبد اللطيف هذه الواقعة بصفتها إشاعة في معرض بيان " عمود سواري"، لكن البروفيسور قدمها في أسلوب بحيث أن شخصا لم يطلع على حقيقة الأمر يأخذ في الظن أن عبد اللطيف

أثبت هذه الواقعة بصورة مستقلة، ولم يثبت الواقعة فحسب، بل حدد مكان الواقعة وموقعها أيضا.

و رغم أن معظم المؤرخين الأوربيين الذين يسعون لإثبات هذه الواقعة، يستندون إلى هؤلاء المؤرخين الثلاثة، أعني عبد اللطيف و المقريزي و حاجي خليفة، و لذا تركز بحثنا هنا على هؤلاء المؤرخين لا غير. غير أن بعضا منهم قد سبقوا إخوانهم في مجال الدلس و الخداع، و قالوا زورا و بهتانا إن هناك شهادات عديدة غيرها تؤيد حصول هذه الواقعة. يقول السيد / كرشنن على هامش كتابه : " إن بيرن ديساسي،الذي كتب تعليقا موسعا على ترجمة كتاب عبد اللطيف (بيان مصر ص : ٢٤٠) قد جمع شهادات مختلفة من كتب المؤلفين العرب المتواجدة في مكتبة باريس الملكية. و في ضوء هذه الشهادات تبدو رواية أبي الفرج جديرة بالأخذ والاعتبار ،لكن غيبون المتغطرس لم يكن اطلع على هذه المؤلفات."

إن أمرا لم يطلع على جلية الأمر، و بخاصة ذلك الذي يسرع إلى تصديق كل ما يقوله الأوربيين، سوف نخدعه هذه العبارة لا محالة، و يأخذ يستيقن أنه ستكون هناك مواد علمية وفيرة حول هذه الواقعة في مكتبة باريس العظيمة، و إلا لم يكن تشتهر مثل هذه الواقعة الكاذبة في أوربا بأسرها.

و لكن ينبغي ألا يرعب اسم باريس الفخم قراءنا. إن تعليقات ديساسي و الكتب التي أشار إليها موجودة بين يدي. و لا شك في أن ديساسي استنفد جهده كله لإثبات هذه الواقعة، ولكن مما يؤسف له أن

القوة التي توجد في طبيعته لا توجد في الأدلة التي قدمها. و فيما يلي ننقل ما كتبه ديساسي بصدد هذه الواقعة:

" إن ما كتبه أبو الفرج في كتابه " مختصر الدول" عن إحراق مكتبة الإسكندرية و إتلافها بأمر من عمر (رضي الله عنه) قد شك فيه عديد من المؤلفين الكبار. و إن كل ما كتب عن هذه الواقعة يحتاج إلى بحث فائض،ليتم تقييم قيمتها العلمية تقييما صحيحا.

و إن الأدلة التي أثير على أساسها الشكوك يمكن أن تتواجد في الدراسة الألمانية التي قام بنشرها Meh Rainhard من Gottlngre عام ١٧٩٢م، و في التعليقات الخاصة بمكتبات الإسكندرية العتيقة، التي دونهاM. de. Saire Croix في ميغازين إنسايكلوبيديا،السنة الخامسة على الصفحة ٤٣٣. و إن موسيو لانجال (Langles) و وايت (White)يؤيدان الرأي العام الشائع، غير أنهما لا يقبلان رواية أبي الفرج المبالغ فيها.

و من بين الاعتراضات التي وجهت إلى رواية أبي الفرج اعتراض قوي، هو أن المؤرخين العرب يعتصمون بالسكوت في مثل هذه الواقعة العظيمة، لكن قوة هذا الاعتراض تضعف في ضوء شهادات عبد اللطيف و المقريزي، بيد أنه يمكن أن يقال إن رواية المقريزي في الظاهر، كما أشار إليه ووسيو لانجال، نقل و إعادة لرواية عبد اللطيف الخاصة بهذه الواقعة.

و إن هذه التعليقات التي سوف أذكرها بعد، لا أريد أن أبارز بسببها مؤلفا عالما (يريد موسيو لانجال) أبجله و أحبه من أعماق قلبي. لكنني عثرت على بعض الشهادات الجديدة الخطيرة، و إني أؤمن بأن هذه الواقعة حصلت كما ذكرها أبو الفرج. ورغم أن فيما تفاصيل لا تستطيع أن تصمد في مواجهة النقد. لكنه من الحق أن هذه الواقعة تتأسس على واقع تاريخي، و هو أن العرب لما فتحوا هذه المدينة أمر عمرو بن العاص، بأمر من عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أن توضع خزينة كانت توجد في الإسكندرية، و تتضمن كتبا كثيرة، في النار."

ثم نقل البروفيسور ديساسي نصد ما لحاجي خليفة و المقدمة لابن خلدون، و استدل بها على واقعة إحراق مكتبة الإسكندرية.

و كم كانت مشتاقا لأن اطلع على الشهادات الخاصة الجديدة التي زعم البروفيسور العثور عليها، ولكن من الأسف إنها لم تكن شيئا. و عجبا أن البروفيسور ألقب نفسه في فحص مكتبة مثل مكتبة باريس العظيمة، و لم يظفر إلا بشهادتين فقط. الأولى عبارة لحاجي خليفة ذكرناها قبل، و الأخرى عبارة قصيرة من المقدمة لابن خلدون ورد فيها، ضمنا و إجمالا، في إحدى المناسبات ذكر مكتبة إيران. و من عجيب المنطق أن يقوم امرؤ بدعوى إحراق مكتبة في إسكندرية، ثم يستدل عليها بحادث مكتبة توجد في إيران. ورغم أن ما قاله ابن خلدون عن مكتبة إيران خاطئ على الإطلاق، ويعارض جميع كتب التاريخ الصحيحة الجديرة بالاعتماد، لكننا لا نبحث عنه

في هذا المقام، لأن مقالنا هذا يخص بمكتبة الإسكندرية لا بمكتبة إيران.

وقد يقال إن البروفيسور ديساسي قدم قول ابن خلدون كشهادة مؤيدة، لكن ذلك أيضا لا يفي بهذا الغرض، فإنه دل على شيء فإنما يدل على أن إحراق مكتبة الإسكندرية واقعة لا أساس (من الصحة على الإطلاق ، و إلا كان أي مؤرخ عربي ذكر واقعة الإسكندرية بنفس الأسلوب الذي ذكر به ابن خلدون واقعة مكتبة إيران، مع أن أيا من الآلاف المؤلفة من كتب التاريخ العربية لا تذكر هذه الواقعة.

إن نص عبد اللطيف و المقريزي الأصلي الذي ذكرناه قبل لا يمكن أن يكون دليلا، بأية حال، على حصول هذه الواقعة. و من الطريف أن أبا الفرج نفسه لم يذكر هذه الواقعة بحيث يثبت منه أنه كان يسلم بصحة هذه الواقعة، و كان يعتقد بصدقها. إن تاريخ أبي الفرج الأصلي الذي كتبه باللغة السريانية أصلا، و الذي ذكر فيه فتح الإسكندرية مفصلا، لا يتضمن هذه الواقعة. غير أن تلخيص هذا التاريخ الذي أنجزه باللغة العربية يحوي هذه الواقعة كما ذكرنا ها قبل، لكنا لا نطمئن كثيرا لهذا التلخيص، هل الإضافات التي تمت على الكتاب الأصلي إنما هي من صنيع أبي الفرج نفسه أو قام بها رجل أخر غيره؟ يقول السيد/ كريل الألماني عن هذا التلخيص : إنه تيقن أشياء لا توجد في الأصل السريالي، و لا يعلم قطعا أن هذه الإضافات زيدت إلى هذا الكتاب في الآونة المتأخرة أو زادها أبو الفرج نفسه، فإن جميع النسخ المتواجدة لهذه التلخيص ناقصة، و إن

واقعة إحراق مكتبة الإسكندرية الموجودة في التلخيص العربي لا توجد في الأصل السرياني. و إن ظن انتحال هذه العبارة يقوي مزيدا بأن البروفيسور بوكاك هو الذي توفر على تحقيق و نشر التلخيص العربي، و كانت له يد ضاع في اختلاف الوقائع ضد المسلمين."

إن جميع دراستنا حتى الآن كانت موجهة إلى ما إذا كان عبد اللطيف و حاجي خليفة أتوا بشهادة أم لم يأتوا بخصوص هذه الواقعة؟ و لكنا لو سلمنا، متنازلين، بأن هؤلاء المؤلفين اعترفوا بصحة حصول هذه الواقعة، فإذن ينشأ هناك بحث أخر، و هو أن شهادة هؤلاء المؤلفين بصدد هذه الواقعة جديرة بالاعتداد أم لا؟

إن عبد اللطيف البغدادي من مواليد عام ٥٥٧هـ، أما حاجي خليفة فلم تمض على وفاته أكثر من قرنين. فمن يستطيع أن يقول إن الواقعة التي حصلت في مستهل القرن الأول الهجري تؤخذ فيها شهادة أولئك الذين ولدوا بعدها بخمسة قرون، و لم يذكروا سندا لشهادتهم، كما لم يشيروا إلى أي مصدر لهم.

و في جانب أخر، ينبغي أن ننظر في مكانة هؤلاء المؤلفين في فن التاريخ. فإن المؤلفين الأوربيين قد احتالوا هنا أيضا، فهم يكيلون حاجي خليفة و عبد اللطيف الثناء جزافا بكلمات فخمة طنانة، ويقولون إن أقوالهم، نظرا إلى عظمتهم و مكانتهم، جديرة بالقبول لا محالة. و كشفا عن خداع و تزوير هؤلاء المؤلفين الأوربيين، يكفي أن يوجه إليهم سؤال وجيز. إننا أيضا نسلم بأن عبد اللطيف و حاجي خليفة كانا مؤلفين عالي الكتب، لكن السؤال في أي فن كان نبدعهم و تخصصهم؟ لا شك في أن عبد اللطيف كان طبيبا كبيرا ، و توجد

له تـأليف عديـدة فـي الطـب، و ذكـر ابن أبـي أصبعـة ترجمـة بتفصيـل فـي "طبقـات الأطبـاء"، الأمـر الـذي يـدل علـى علـو كعبـه و وفـرة معلوماتـه في فـن الطـب. و لكـن هـل وضعـه أحـد فـي عـداد المؤرخيـن؟ و هـل ذكـر هو فن التـاريخ بأيـة مناسبة فـي حياتـه؟ إذا لـم يكـن الأمـر كذلـك، فمـا هـو غنـاء عظمتـه و علـو شـأنه فـي الوقـائع التاريخيـة؟ فلـو كتبـت واقعـة تاريخيـة استنادا إلـى الفـارابي و ابـن سينا فـإلى أي مـدى تكـون جديـرة بـالقبول؟

و كذلـك لا مـراء فـي أن حـاجي خليفـة صنـف كتابـا مفيـدا جـدا مثـل " كشـف الظنـون" لكن ذلـك ليس كتابـا فـي فـن التـاريخ. بـل هـو فـهرس للمصنفـات الإسـلامية، و لا نعلـم مـآثره سـواه لحـاجي خليفـة. وليس له كتاب فـي فن التـاريخ، كمـا لـم يذكـره أحـد فـي عـداد المؤرخيـن.

و الحـق إنـه أمـر بـاعث للعـار لمعارضينـا أنـهم لـم يعـثروا علـى دليـل واحـد لواقعـة عظيمـة دامـت لمـدة ستة أشـهر فيمـا زعمـوا، مـن بيـن آلاف مؤلفـة مـن المصنفـات الإسـلامية و بغايـة مـن اليـأس و العجـز احتجـوا بطبيـب و مصنـف فـهرس للكتـب.

إن كـل دراسـتنا لحـد الآن كـانت مـن ناحيـة أننـا اعتبرنـا المعـارضين مدعيـن، فإنـه نظـرا إلـى مبـادئ المنـاظرة هـم الذيـن كـانوا ادعـوا إتـلاف المكتبـة علـى أيـدي المسـلمين. و لكننـا نخطـو الآن إلـى الأمـام، و ندعـي إن هـذه المكتبـة لـم يتـم إحراقـها بـأمر مـن عمـر رضـي الله عنـه، و لا أتلفـها المسـلمون البتـة. لكـن ينبغـي أن يـدرك أولا أن الدعـوى التـي تقـام بالصيغـة السـلبية مـا هـي طريـق الاستدلال عليـها مـن

ناحيتي الرواية و الدراية؟ فمثلا إذا أقيمت الدعوى أن حادثا فلانيا لم يحصل في زمن كذا كذا، فيكفي دليلا عليها، من ناحية الرواية، إن جميع مصادر العلم و المعرفة الخاصة بذلك الزمن لا تقول شيئا بصدد ذلك الحادث. هذا من ناحية الرواية. أما من ناحية الدراية فهي أن تنفي القرائن و الشهادات الأخرى حصول هذا الحادث في ذلك الزمن. و بناء على طريق الاستدلال هذه، نحن ندعى أن مكتبة الإسكندرية لم تتلف بأيدي المسلمين بصورة أكيدة.

إن عصر التأليف في الإسلام يستهل من عام ١٤٠هـ، و في هذا الزمن بالذات صنف محمد بن إسحاق أول كتاب في التاريخ حول سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، ثم تتابعت كتابة التاريخ العام حول فتوحات الخلفاء الراشدين و تفاصيل أحداثها ووقائعها. و فيما يلي نحن نذكر المصنفات التي أنجزت في هذا العصر، و التي هي متواجدة في أصلها أو توجد آثارها:

فتوح البلدان للبلاذري:

عاش البلاذري في عهد الخليفة العباسي المتوكل على الله، و ذكر في تاريخه كل واقعة بالأسناد المتصلة.

تاريخ اليعقوبي:

أي تاريخ أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العباسي. و هو مؤلف قديم جدا، و كان من معاصري رجال بلاط مامون الرشيد. و كتب هذا التاريخ حتى عام ٢٥٩هـ، و كان

في الأغلب على قيد الحياة في هذه السنة. يتكون كتابه من جزئين، ونشر من ليدن عام ١٨٨٣م.

تاريخ أبي حنيفة الدنيوري:

نشر من ليدن

التاريخ الكبير لأبي جعفر جرير الطبري:

و رغم أن هذا التاريخ متأخر لحد ما من كتب التاريخ المذكورة أعلاه، فإنه مؤلفه توفي عام ٣١٠هـ الموافق لعام ٩٢٢م، لكنه دون في تاريخه جميع الوقائع بالأسناد المتصلة، كما ذكر أسماء الرواة بأجمعهم في الروايات كلها. إن هذا الكتاب مخزن جميع الروايات التي تتواجد الآن أو كانت موجودة في الماضي بخصوص التاريخ الإسلامي. و من هذا المنطلق صحيح أن يقال: إن الوقائع الخاصة بالقرون الثلاثة الأولى التي لا يتضمنها هذا الكتاب لا تدخل في التاريخ. و هو كتاب ضخم جدا. و قد طبع منه حتى الآن اثنا عشر جزءا من هولندا، و لم تزل عدة أجزاء منها مطمورة بعد.

إن تاريخي ابن الأثير و ابن خلدون، اللذين يخطيان بدرجة عالية من الموثوقية، إنما هما تلخيص تاريخ الطبري نفسه. و قد سلم به هؤلاء المؤرخون أنفسهم. و إضافة إلى هذه الكتب التاريخية هناك كتب أخرى تبحث عن التاريخ الإسلامي، و لكنها هي الأخرى تعتمد على الكتب العديدة التي ذكرناها قبل فيما يتعلق بالوقائع التاريخية، وإن دراسة هذه الكتب تدل على ذلك بصراحة.

وبالإضافة إلى هذه الكتب، هناك كتب أخرى صنفت في أحوال مصر و الإسكندرية بوجه خاص، و قد عثرنا منها حتى الآن على المصنفات التالية:

خطط مصر لأبي عمر الكندي (ت ٢٤٦هـ)، و كشف الممالك لابن شاهين (ت ٣٨٥هـ)، و تاريخ مصر لعبد الرحمن الصوفي (ت ٣٤٧هـ) وتاريخ مصر لمحمد بن بركات النحوي (ت ٥٢٠هـ) و تاريخ مصر لمحمد بن عبد الله (ت ٤٢٠هـ) و تاريخ مصر للقفطي (ت ٦٤٦)، و تاريخ مصر لقطب الدين الجلي (ت ٤٣٥هـ) و تاريخ مصر ليحيى الجلي (ت ٦٤٠هـ)، و الانتصار لابن دقماق (ت ٨٠٩هـ)، و عقود الجواهر، و نزهة الناظرين، والدرة المضيئة، و أشرف الطرف، و النزهة السنية، و تفريح الكربة، وفرائد السلوك، و بدائع الزهور، و تحفة الكرام بأخبار الأهرام، و أعلام بمن ولي مصر في الإسلام، و تاريخ مصر لإبراهيم بن وصف، و جواهر البحور، و مختار للقضاعي ، و النقط المعجم، و الروضة البهية، و المواعظ و الاعتبار للمقريزي، و جواهر الألفاظ، و اتعاظ الحنفاء، و النجوم الزاهرة، و تاريخ مصر لابن عبد الحكم.

و مع أن جميع هذه الكتب لا توجد اليوم، لكن صنفت في العصور التالية كتب اشتملت على روايات الكتب القديمة بأجمعها، مثل كتاب "حسن المحاضرة" للسيوطي. فقد كتب السيوطي نفسه في مقدمة هذا الكتاب أنه قرأ في ثمانية و عشرين كتابا، و أعد فيها هذا الكتاب. و من أبسط الكتب و أكثرها تفصيلا في هذا الباب هو كتاب المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط و الآثار " للمقريزي،الذي استقص فيه حتى كل واقعة جزئية تخص بهرو الإسكندرية.

إن جميع الكتب الموثوقة التي ذكرناها قبل، و التي لا مصدر سواها للإطلاع على أحوال هذا العصر، لا يمس أي كتاب منها موضوع هذه الواقعة التي نحن بدراستها الآن. مع أن هذه الكتب، و بخاصة فتوح البلدان للبلاذري، وحسن المحاضرة للسيوطي، والخطط و الآثار للمقريزي تبحث عن فتح الإسكندرية بإسهاب، و مع ذلك إنها لم تذكر حتى هذه المكتبة ذكرا عابرا.

هذه هي الكتب التي كان من المتوقع أن تتضمن هذه الواقعة (إذا كانت حصلت فعلا) بصورة متميزة، لكن المصنفات التي يتوقع أن تشير إلى هذه الواقعة عرضا، إنها هي الأخرى لا تخبر شيئا عن هذه الواقعة المختلفة، مثل الكتب التي صنفت في تراجم الفلاسفة والأطباء، و التي تتضمن ترجمة يحي النحوي نفسه، و قال إن يحي طلب إلى عمرو بن العاص رضي الله عنه إعطاءه المكتبة، فرد عليه عمرو بأمر إحراق المكتبة، و ذلك بإيعاز من عمر رضي الله تعالى عنه. كان يحيى طبيبا و فيلسوفا، و نقلت جميع مصنفاته إلى اللغة العربية. و إن كتب التاريخ العربية التي صنفت في تراجم الفلاسفة و الأطباء تذكر ترجمة يحيى النحوي بإسهاب. فقد ذكره ابن أبي أصبعة في طبقات الأطباء و ابن النديم في كتاب الفهرست وذكرا أحوال حياته،وعددا مصنفاته، و كتبا أيضا أنه حضر في خدمة عمرو بن العاص، فأنزل نزلا كريما. يقول ابن النديم:

" و كما فتحت مصر على يدي عمرو بن العاص دخل إليه، و أكرمه، و رأى له موضعا."

و زعم وجود هذا التاريخ، لم يرد ذكر المكتبة بأي مكان، الأمر الذي يدل دلالة واضحة على أنه لا أساس لهذه الواقعة من الصحة و الواقع.

وإضافة إلى هذه المصنفات، كان من المتوقع أن تذكر هذه الواقعة عرضا في كتب الجغرافيا و الرحلات و السير الذاتية، لكن لا توجد عين و لا أثر لها في هذه الكتب أيضا. حق إننا لا نكون مجانبين للصدق إذا ادعينا أن المصنفات الإسلامية بأسرها، ما خلا عبارة عبد اللطيف التي كشفنا عن حقيقتها في الصفحات الماضية، تخلو من ذكر هذه الواقعة. و أي دليل أكبر من هذا يوجد على كذب هذه الواقعة؟

وفوق ذلك إن كتب التاريخ القديمة التي صنفها المسيحيون أنفسهم لا تتضمن هذه الواقعة. فقد كتب يورتيكس (ت ٩٤٠م)، الذي كان يشغل منصب بطريرك الإسكندرية في القرن العاشر الميلادي، كتابا ضمنه تفاصيل فتح الإسكندرية. كما صنف المسكين، الذي عاش بعد ثلاثة قرون من هذه الواقعة، أي قبل أبي الفرج بقرنين، كتابه عن تاريخ مصر حال قيامه فيها، و كتب فيه أحوال فتح الإسكندرية بإسهاب. ولكن لم ترد حتى كلمة واحدة عن هذه الواقعة المختلفة في هذين الكتابين. كان هذان المصنفان من المسيحيين المتعصبين، و لا يمكن أن يظن عنهما الانحياز تجاه المسلمين، و إلى ذلك، كانا باحثين و من محبي العلم، و إن ضياع مثل هذا التراث العلمي الكبير لم يكن ليكون أثرا تافها في نظرتهم. و إن إقامتهم في مصر و ولوعهم الطبيعي يكفلان لهما تكاثر قنوات العلم و المعرفة

لهم عن مصر و أحوالها. و بالرغم من ذلك كله، إن عدم قيام هذين المؤرخين بكتابة كلمة واحدة عن هذه الواقعة يدل دلالة واضحة على أنه لا أساس لها قطعا. و قد استدل بهذا المصنفون من المؤلفين الأوربيين، أمثال غيبون وكريل، بوجه عام على بطلان هذه الواقعة.

و هناك دليل آخر أقوى من هذا على كذب هذه الواقعة، وهو أن المكتبة التي يعزون إحراقها إلى المسلمين قد كانت ضاعت قبل الإسلام بزمن غير قليل. و جلية الأمر هي أن هذه المكتبة كان أنشأها ملوك مصر، و كانوا من عبدة الأصنام، فلما استبدت المسيحية بالأمر في مصر، أخذ الملوك المسيحيون في إتلاف هذه الكتب بدافع من العصبية الدينية، و زادت الأرض بلة و الطنبور غنة بحث القساوسة على ذلك.

ولذا لم يجد كبار المصنفين و المؤرخين الأوربيين مندرجة من الاعتراف بأن هذه المكتبة كان تم إتلافها قبل الإسلام بزمن طويل. ذات مرة ألقى موسيو رينان، العالم الفرنسي الشهير، محاضرة في جامعة باريس تحت عنوان "الإسلام و العلم" و قد طبعت هذه المحاضرة في كتيب في باريس عام ١٨٨٣م. و زعم أن هذه المحاضرة ملينة بالعصبية ضد المسلمين، حيث أثبت فيها بكل قوة أنه لا يمكن اجتماع العلم مع الإسلام، مع ذلك قال هذا المتعصب عن مكتبة الإسكندرية في هذه المحاضرة:

" و مع أنه يقال إن عمرو بن العاص (رضي الله تعالى عنه) أمر بإبادة مكتبة الإسكندرية، لكن ليس ذلك حقا، فإن هذه المكتبة كان تم إبادتها قبل هذا الزمن."

قد ذكر السيد/ كريل تفاصيل هذه المكتبة الملكية في مقاله ، و أبان بإسهاب ضياعها عبر العصور. إن ضياع هذه المكتبة أمر واقع لدرجة أنه (لا مناص حتى للمؤرخين الأوربيين من الاعتراف بها)، ولم يستطع أن ينكرها حتى أولئك المؤرخون الأوربيون الذين يريدون أن يثبتوا واقعة إحراق مكتبة الإسكندرية. كتب السيد/ دربير في كتابه إن يوليو قيصر كان قد أحرق أكثر من نصف هذه المكتبة، أما الباقي منها فلم يكتف بطارقة الإسكندرية بالسماح لإتلافها، بل أشرفوا بأنفسهم على إتلاف و تشتيت المتبقية منها، و يقول دسيس بصراحة:

"و بعد عشرين سنة من هذه الواقعة ، كان ثيو فيلس حصل على إذن مكتوب من الملك ثيو دوسس لإتلاف هذه المكتبة، وقد رأيت دواليها و رفونها خالية."

و بما أن ضياع هذه المكتبة كان أمرا واقعا، فلجأ المعارضون إلى خداع آخر، و ادعوا أن المكتبة التي كان أتلفها عمرو بن العاص رضي الله عنه لم تكن تلك المكتبة الملكية، بل كانت مكتبة السيرابيوم و أشار كاتب في جريدة Spectator ، تأييدا لأبي الفرج، إلى مكتبة السيرا بيوم نفسها. لكن هذا من باب توجيه القول بما لا يرضى به قائله، فإن أبا الفرج حينما كتب في تاريخه أن يحيى النحوي طلب إلى عمرو بن العاص رضي الله عنه الكتب، فإنه كتب بالمناسبة بكلمات صريحة" كتب الحكمة التي في خزائن

الملوكية." و لو سلمنا - على سبيل الافتراض - بأن هذه الواقعة تخص بمكتبة السيرابيوم، فإنه رغم ذلك يستعصي على معارضينا أن يثبتوا وجود هذه المكتبة إبان فتح الإسكندرية. و بالعكس إنه يثبت أن هذه المكتبة أيضا كانت أبيدت جزءا أو كلا قبل ذلك.

يقول السيد / كريل إن السيرابيوم و مكتبتها لا تزالان في ظلام حتى الآن،فإنه من المعلوم أن مبد السيرا بيوم الذي كانت تتعلق به هذه المكتبة كان تم تحويلها إلى كنيسة عام ٣٨٩، و ذلك في زمن ثيودوسيس. و لكن هل كانت هذه المكتبة موجودة حال تحويل المعبد إلى الكنيسة أم كانت ضاعت قبل، أو كانت كتبها نقلت إلى القسطنطينية، أقرب إلى القياس، فإن المكتبة التي كان أنشأها ثيودوسيوس الثاني في القسطنطينية في القرن الخامس الميلادي، كانت تتكون من كتب مصر و آسيا الصغرى.

وتسليما بأن المكتبة التي نحن بدراستها كانت في السيرابيوم، قال موسيو سرنيو الفرنسي : إن أي مورخ معاصر لم يذكر هذه الواقعة (إحراق عمرو المكتبة)، و لو صحت، فإنها تتعلق بكتب عديدة فحسب، فإن بعض أجزاء هذه المكتبة كان تم إتلافها على زمن قيصر، و مرة أخرى على عهد ثيودوسيس."

و الآن نريد أن نزن صحة هذه الواقعة و كذبها في ميزان الدراية. إن الخصائص التي أحاط بها أبو الفرج (الذي هو أول ناحل لهذه الواقعة المختلفة) هذه الواقعة باطلة و غير معقولة لدرجة أن جميع المؤرخين الأوربيين بعامة، سواء كانوا من المسلمين بها

أو المنكرين لها، يعتبرونها رواية فاقدة الأساس. فالبروفيسور ديساسي،الذي استنفد جهده في إثبات هذه الواقعة، يعترف بأن التفاصيل التي أوردها أبو الفرج غير صحيحة، كما أطلق ذلك سخرية كتاب دائرة المعارف البريطانية أيضا. وهل توزيع الكتب على الحمامات (البالغ عددها أربعة آلاف حمام) و إحراق الكتب لمدة ستة أشهر، و حلولها محل الوقود، يكون شيئا غير قصة منحولة؟ و مع أن أبا الفرج لم يبين عدد الحمامات المتواجدة في مصر، و لكنه معلوم قطعا أنها كانت أربعة آلاف حمام. فينبغي أن يعلم أن الحمامات المصرية و عدد الأربعة آلاف شيئان متلازمان، كما ارتأى ذلك معظم المؤرخين الأوربيين. فلو حسبنا الآن ماذا عسى أن يكون عدد الكتب الموزعة على الحمامات فنتوصل إلى أنه من العسير أن يوزع كتاب واحد نمل حمام واحد يوميا، بل إن نصيب كل حمام لا يكون أكثر من نصف الكتاب. فإما كان استعمال الحمامات قليلا جدا، حيث أن كتابا واحدا، بل إن نصف الكتاب، كان يكفي ليوم واحد، أو كانت هذه الكتب ضخمة حيث أن نصف الكتاب كان يوفر وقود يوم بأكمله.

و من المعروف أن الكتب في هذه العصور كانت تكتب على الجلود، و هي لا تغني غناء الوقود، فاستعمال الكتب لهذا الغرض، يبدو اكثر صخانة و حمقا. يقول دربير:" إنني على ثقة من أن أصحاب الحمامات في الإسكندرية ما داموا يجدون وقود آخر إنهم لم يكونوا أحرقوا الكاغذات المصنوعة من الجلد (و التي كانت كتبت

عليها هذه الكتب)، و إن معظم أجزاء هذه الكتب كانت متلونة من كاغذات جلدية نفسها."

إن الناحلين لهذه القصة نحلوها تشويها لسمعة المسلمين، لكنه لم يمر نجلدهم أن هذه القصة تقسيم المسيحيين أنفسهم في قفص الاتهام. فإنه - افتراضا للمستحيل - إن كان عمرو بن العاص أرسل هذه الكتب إلى الحمامات، لكن أصحابها ببكرة أبيهم كانوا يدينون بالنصرانية، و كان يمكنهم صيانة هذه الكتب و استعمال وقود غيرها. و لم يمكث عمرو بن العاص بعدها لستة أشهر في الإسكندرية حتى تفرق قلوبهم من محاسبته.

و مع أن هذه القياسات العابرة السهلة الفهم تكفي لدحض هذه الواقعة المنحولة،لكن إمعان النظر مزيدا يكشف عن حقيقتها كشفا تاما. إذا نظرنا في هذه الواقعة بعين الدراية فيجب علينا ملاحظة الأمور التالية: كيف، و على أية شروط تم الاستيلاء على الإسكندرية؟ و كيف كانت المعاملة مع البلدان التي فتحت مثل فتح الإسكندرية؟ و ماذا كان موقف عمر رضي الله تعالى عنه بوجه عام في مثل هذه المناسبات؟ و كيف كان اتجاه عمرو بن العاص رضي الله عنه الشخصي و مذاقه الطبيعي؟ و هل توجد آثار تراث الإسكندرية العلمي في الإسلام أم لا؟ إن جواب كل سؤال من هذه الأسئلة يكفي في قليل أو كثير، يكفي للبث في هذا البحث.

إن جميع كتب التاريخ الموثوقة تنص على أن الإسكندرية بعد فتحها دخلت في عهد الذمة، أعني أصبحت رعاياها أ هل ذمة

وأمان. إن كتاب البلدان للبلاذري، و هو كتاب قديم جدا، و الذي يردي فيه مؤلفة كل وافقة بسنده، جاء فيه:

" ثم إن عمرو افتتحها بالسيف، و غنم ما فيها، و أبقى أهلها و لم تقتل، ولم يسب، و جعلهم ذمة."

ووردت هذه الكلمات نفسها في تاريخي ابن الأثير و ابن خلدون أيضا.

و من أوائل الحقوق التي أعطاها الإسلام أهل الذمة هي أن يؤمنوا على أرواحهم و أموالهم العينية و بضائعهم و بهائهم ومباينهم و ما إليها. إن الاتفاقيات التي أنجزت في شكل كتابي، مع أهل الذمة في فتوحات الشام و فارس كلها توجد في كتب التاريخ، و في كل منها روعيت هذه الحقوق بوجه خاص. و فيما يلي كلمات اتفاقية مصر بنفسها:

" هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم و دمهم و أموالهم و صناعهم و مدهم و عددهم."

و يتضمن كتاب معجم البلدان رواية صحيحة أخرى جاءت فيها كلمات أو مضمون الاتفاقية كما يلي :

" و إن لهم أرضهم و أموالهم لا يتعرضون في شئ منها."

لا يمكنني أن أطيل القول في سلوك عمر رضي الله عنه مع أهل الذمة، لكنه من الضروري أن نقول هنا بالإجمال إنه ساوى دائما بين دماء و أموال أهل الذمة و الإسلام. فحينما قتل رجل مسلم

ذميا في الحيرة أمر عمر رضي الله عنه بقتل المسلم قصاصا عنه، وتم تنفيذ أمره هذا على رؤوس الأشهاد، كما أجرى الرواتب والمعاشات لفقراء الذميين من بيت المال ، و أبقى على الكنائس والمعابد بأسرها في فتوحات الشام. و أي شئ يكون أعظم من الوصايا الثلاث التي أوصا بها و هو على فراش الموت:

" أوصى الخليفة من بعدي بذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوفى لهم بعهدهم، و أن يقاتل من ورائهم، و ألا تكلفوا فوق طاقتهم."

إن مؤلفي أوربا المتعصبين الذين يشكون من عمر رضي الله عنه شدته و صلابته، لا يسعهم أن ينكروا أن كل ما كتبه قلمه أو نطق به لسانه امتثل به كاملا دون زيادة أو نقصان. و إن المؤرخين المسيحيين، مهما أوغلوا في تعصبهم، لا يستطيعون أن يقدموا مثالا واحدا من حياته كلها لم يوافق فيه عمله قوله.

فلما سلم به أن سكان الإسكندرية جعلوا أهل ذمة و أمان، وإن معاملة عمر رضى الله عنه مع أهل الذمة معلومة تماما، إذا كيف يمكن إتلاف تذكار كبير (أي المكتبة) لأهل الإسكندرية بمثل هذه الضراوة و قساوة القلب؟ و هل كانت هذه المكتبة أكثر إثارة لنفرة المسلمين و كراهيتهم من المعابد و الكنائس؟ و لما تركت مئات و آلاف من المعابد و الكنائس على حلها في طول و عرض البلدان التي فتحها المسلمون، و كتبت هذه الكلمات الخاصة للحفاظ عليها في جميع المراسم:

" لا يهدم لهم بيعة و لا كنيسة داخل المدينة و خارجها."

فكيف يعقل هذا الموقف المتعسف الغاشم في شأن المكتبة؟

و الحق أن أبا الفرج (الذي نحل هذه الواقعة لم يكن يدري كيف يكذب؟ فلو قص هذه القصة عن زمن الحصار و الفتح بالذات لكانت معقولة، فإن الهجوم و عاطفة المقاومة لا يحفلان بأي شئ؟ لكن بعد أن سلم بأن المدينة أعطيت الأمان، جعل أهلها أهل ذمة، وفرت حمى الحرب و العراك، إذا لا يمكن أن يحدث هذا العمل الغاشم إلا في مخيلة أبى الفرج فحسب. و لذا رد البروفيسور سيديو رواية أبي الفرج قائلا:

" فيما يسلم بأن المدينة لم تنهب في الأيام الأولى من فتحها، فمن العسير أن يصدق أنه أمر بهذا العمل الوحشي في وقت عثرت فيه دماء الفاتحين."

و إن أبا الفرج نفسه اعترف بكفاءة عمرو بن العاص رضي الله عنه و ذوقه العلمي، فقد كتب في ترجمة يحي النحوي:

" دخل على عمرو، وقد عرف موضعه من العلوم، فأكرمه عمرو، و سمع من ألفاظه الفلسفية التي لم يكن للعرب بما أنسة ما هاله. و كان عمرو عاقلا، حسن الاستماع، صحيح الفكر، فلازمه وكان لا يفاته."

فلننظر أن هذا الإنسان الفاضل المحب للعلم الذي، رغم حماسة الدينية، اتخذ عالما مسيحيا صاحبه و رفيقه، و إلى ذلك كان مولعا بالأبحاث العلمية بل الفلسفية، كيف يتصور أنه يستمر في

إتلاف المكتبة لمدة طويلة، الأمر الذي لا يقدم عليه شخص جاهل، مهما أوغل في جهله و غباوته. لنفترض أنه لم يكن حرا في تصرفاته، و لكن كان يمكنه أن يكتب توصية عن هذه المكتبة في الكتاب الذي كان بعث به إلى عمر رضي الله عنه. و إن عمرو طالما استخرج منه الإذن استخراجا في أمور شتى، حتى إن عمر رضي الله عنه لم يكن راضيا بشن الهجوم على مصر و الإسكندرية في أية حال، لكن عمروا رضي الله عنه اضطره إلى ذلك، تحمل مسئولية فتحها، فأذن له به عمر رضي الله عنه. بل طبقا لرواية العلامة البلاذري (و هو مؤرخ ثقة معروف) إن عمروا لم ينتظر أن يصل إليه إذن عمر رضي الله عنه ، و توجه تلقاء مصر. و من المعروف أن الشروط التي تم بموجبها فتح مصر و الإسكندرية، والشروط الأخرى المذكورة في الاتفاقية،كان أملاها عمرو بن العاص رضي الله عنه من عند نفسه، ثم أخبر بها عمر رضي الله عنه، موافقة عليها. هل إن عمرو بن العاص رضي الله عنه لم يكن يستطيع أن يفعل ذلك بخصوص هذه المكتبة؟

و الأعجب من ذلك أن الكتاب الذي كان أرسله عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى مركز الخلافة على إثر فتح الإسكندرية، ذكر فيه كل شئ بتفصيل. فقد كتب بعد بيان الفتح أنه توجد في هذه المدينة أربعة آلاف حمام، أربعة آلاف قصر، و أربعون ألفا من اليهود الذين يعطون الخراج، و أربع مائة منتزه ملكي، و اثنا عشر ألف من الحدائق التي يباع خضارها. و لكننا لا نعثر على ذكر المكتبة المختلفة التي ذكرها أبو الفرج.

إذا أنعمنا النظر في جميع الوقائع التاريخية فيتبين لنا بصورة واضحة أن جميع المكتبات الموجودة في الإسكندرية كانت أبيدت قبل الإسلام بزمن طويل، و قد أفاض المؤرخون في بيان خلفياتها و عللها. و لكن رغم هذه الأحداث لم تقض على الآثار العلمية قضاء تاما، كما أنه لا يمكن القضاء على التراث العلمي لمدينة ظلت لمئات السنين مركزا للعلم في محاولة واحدة. فقبل الإسلام بزمن قصير، كان يوجد في الإسكندرية سبعة أطباء وفلاسفة مشهورين، وهم : اسطفن، جاسيوس، ثادوسيوس، اكيلاوس، انفيلاوس، فلاديوس، يحيى النحوي. و قد عمر الأخير أكثر من أصحابه حتى بقي على قيد الحياة إلى زمن عمرو بن العاص رضي الله عنه. إن مكتبات الإسكندرية كانت قد ضاعت قبل زمن طويل، غير أن التراث العلمي الذي أنجز في العصور المتأخرة كان موجودا وقت فتح الإسلام و في الأحقاب التالية أيضا. فلما بدأ البحث عن الآثار العلمية إبان الخلافة العباسية عثر على خزينة كبيرة في الإسكندرية. و إن عمال الخلفاء العباسيين، هارون الرشيد و مأمون و المتوكل بالله، الذين كانوا يطوفون في أنحاء الشام و فلسطين و آسيا الصغرى و القبرص،بحثا عن المصنفات الطبية و الفلسفة، رحلوا في هذه المهمة إلى الإسكندرية أيضا، و عثروا فيها على كتب كثيرة. كتب حنين بن إسحاق أنه طوف في مدن الجزيرة و الشام و فلسطين و مصر، بحثا عن كتاب البرهان لجالنيوس،حتى انتهى به التطواف إلى الإسكندرية، و لكن لم يرعينا و لا أثرا لهذا الكتاب في أي مكان، غير أنه وجد بعض أجزاء غير منسقة لهذا الكتاب في دمشق. إن إخفاق حنين في مهمته كان بسبب أنه المكتبات القديمة كانت قد

ضاعت قبل الإسلام بزمن طويل، لكنه ظفر بجميع المصنفات التي كانت أنجزت في العصور المتأخرة و كانت محفوظة لوقت مجيء الإسلام. كما وجدت مصنفات الأطباء و الفلاسفة السبعة المذكورين أعلاه بأسرها، و تم نقلها إلى اللغة العربية، و تلقت كتب يحيى النحوي اعتناء أكبر، و فيما يلي نذكر بعض كتبه التي ترجمت إلى اللغة العربية:

تفسير كتاب فاطيغورياس لأرسطاطاليس، و تفسير كتاب أنالوطيقاي الأولى لأرسطاطاليس، و تفسير كتاب أنالوطيقاي الثاني لأرسطاطاليس، و تفسير كتاب طوبيقا لأرسطاطاليس، و تفسير كتاب السماع الطبيعي لأرسطاطايس، و تفسير كتاب الكون و الفساد لأرسطاطايس، وتفسير كتاب ما بال لأرسطاطايس وتفسير كتاب الفرق لجالنيوس و تفسير كتاب الصناعة لجالنيوس، و تفسير كتاب النبض الصغير لجالنيوس،وتفسير كتاب أغلوفن لجالنيوس، و تفسير كتاب الاسطقعات لجالنيوس، و تفسير كتاب القوى الطبيعية لجالنيوس ، و تفسير كتاب التشريح الصغير لجالنيوس، و تفسير كتاب العلل و الأمراض لجالنيوس، و تفسير كتاب تصرف علل الأعضاء الباطنية لجالنيوس، و تفسير كتاب النبض الكبير لجالنيوس، و تفسير كتاب الحميات لجالنيوس و تفسير كتاب البحران لجالنيوس،وتفسير كتاب أيام البحران لجالنيوس و تفسير كتاب منافع الأعضاء لجالنيوس وتفسير كتاب تدبير الأسعار لجالنيوس، و تفسير كتاب المزاج لجالنيوس، و جوامع كتاب الترياق لجالنيوس، وجوامع كتاب الفصد لجالنيوس، و كتاب الرد على برقلس، و كتاب في أن

كل متناه فقوته متناهية، و كتاب الرد على أرسطاطاليس، وكتاب الرد على تطورس، و شرح كتاب ايساغوجي لغرفوريوس. هذا وهناك كتب أخرى نجد تفاصيلها في طبقات الأطباء وكتاب الفهرست لابن النديم. فلو كانت مكتبة الإسكندرية ضاعت على أيام عمرو بن العاص فكان من اللازم أن تضيع مصنفات يحيى النحوي قبل غيرها، فإنه كان معاصرا لعمرو بن العاص و- فيما يقول أبو الفرج - ناظر هذه المكتبة.

و ملخص القول إن التراث العلمي الذي كان متواجدا وقت مجئ الإسلام في مصر و الإسكندرية و غيرها من المدن لم يضيع البتة، غير أن الذي كان قد ضاع منه قبله لم يكن يستطيع أحياها مرة ثانية. و إن التاريخ يدلنا أيضا على أنه حينما سلم شئ من الزمان القديم من الضياع لسبب ما، فإنه لم يضع قط في ظل الإسلام، بل احتفظ به تذكارا بكل تقدير في العصور المتأخرة. كتب ابن البندي،الذي كان ينحدر من مصر و كان نابغة في علم الاصطرلاب إن الوزير أبا القاسم على بن أحمد الجرجاني قام باستعراض مكتبة القاهرة عام ٤٣٥هـ، و أمر القاضي أبا عبد الله القضاعي و ابن خلق الوراق بإعداد فهرس لكتبها و ترميم ما أصابه الخلل أو التلف من جلودها، فاصطحب هو هذين الشيخين إليها لكي ينظر هناك الكتب التي يعجب ذوقه. فالكتب التي كانت في النجوم و الهندسة و الفلسفة بلغ عددها ستة آلاف كتاب. و هنا رأى كرة من الصلب كان صنعه بطليموس، و لما أراد أن يقدر قدمها فثبت بالحساب أن الكرة ترجع إلى ٢٢٥٠ سنة ماضية. و في هذا المكان نفسه عثر على كرة قضية

أخرى كان صنعها أبو الحسن الصوفي لعضد الدولة، و كان وزنها ثلاثة آلاف درهم، و كانت اشتريت بثلاثة آلاف دينار.

و رغم أننا قد حكمنا في هذا البحث بالأصول الاجتهادية، فلا نحفل بعدها بأن المؤرخين الأوربيين يوافقوننا فيه أم لا؟ مع ذلك نرى من اللازم أن نقول، تهدئة لبال المقلدين و لسريعي التصديق لأوربا بوجه خاص، إن هذه القصة كانت تسلم بها في أوربا كلها سابقا، و لكن مثلما حققت الدراسات و الأبحاث التاريخية الرقي والإزهار و ضعفت قد ردلك قوة تصديق هذه القصة ، حتى إن معظم المؤرخين حاليا يعتبرونها قصة كاذبة منحولة. و قد تحقق هذا القدر من الاعتراف حتى الآن، و أرجو أن يحل يوم تعلن فيه أوربا قاطبة، بعد درس و إمعان نظر زائدين، في صوت واحد:

"كنا نوجه التهمة إليهم فأصبحنا نحن مجرمين"

المراجع:

(١) Prof. G. White D.D. : Aegyptiuea or Observation on Certain Antiquities of Egypt, 1801

(٢) Washington Irving: Successors of Mohammad, P.3 Ball & Sons, London

(٣) Arthur, M.A. : The Saracens, 2nd edition, p. 254, History of Nation Series, 1889.

(٤) Andrev Crichtion: A History of Arabia Ancient and Modern, Vol. I, P. 393.

(٥) Drapper, L.L.D. : History of the Conflict between Religion and Science, 20th edition, London, 1887, p. 103-104

(٦) See " Spectator", June 2, 1888 and June 23, 1888.

(٧) Sedillot, L.B. : Histoire Generale des Arabes, Paris, 1877, P. 155.

(٨) انظر ترجمة و تعليق البروفيسور ديساسي (Desacy) على كتاب عبد اللطيف البغدادي، طبع باريس عام ١٨١٠، ص/٢٤٠

(٩) أبو الفرج بن هارون : تاريخ مختصر الدول، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٥٨، ص/١٠٢-١٠٣

(١٠) انظر ترجمة البروفيسور ديساسي و تعليقاته على تاريخ عبد اللطيف البغدادي ص/ ٢٤٠، طبع باريس عام ١٨١٠

(١١) و في نسخة لهذا الكتاب طبعت بمصر، و تتضمن أخطاء كثيرة، وردت كلمة " أرى" بدل " يذكر". و لو اعتبرنا هذه النسخة صحيحة لم يعد ذلك أكثر من رؤية شخصية لعبد اللطيف.

◆◆◆

أكبر فقيه إسلامي فقدته الهند

بقلم: محمد قطب الدين الندوي

لم ترقأ دموع الأمة الإسلامية في الهند بصفة خاصة و في العالم الإسلامي بصفة عامة فما زالت تعزي نفسها على وفاة شخصية القرن العشرين الإمام الشيخ سيد أبي الحسن علي الحسني الندوي حتى فجعت مرة أخرى بخسارة جسيمة في وفاة أمين عام مجمع الفقه الإسلامي الهندي ورئيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند صاحب المؤلفات و المقالات العلمية القيمة الشيخ مجاهد الإسلام القاسمي. انتقلت هذه الشخصية العبقرية إلى جوار ربه تعالى ليلة الجمعة الرابع من شهر أبريل/نيسان عام ٢٠٠٢ للميلاد وكان يناهز ٦٧ عاما من عمره. إنا لله و إنا إليه راجعون. و هو أحد أبناء الهند الأفذاذ الذين خاضوا معركة الحياة رغم قلة الموارد و قاموا بحل قضايا المسلمين في الهند سواء كانت القضايا دينية أو سياسية أو اجتماعية.

مولده و نشأته:

ولد شيخنا في اليوم التاسع من شهر أكتوبر / تشرين الأول عام ١٩٣٦ للميلاد في بلدة "جاله" بمديرة "دربنجا" بولاية "بيهار" في الهند. وإن بلدة جاله تمتاز بالدين الإسلامي منذ عهد الأمراء الخلجيين في الهند ولم تخل هذه البلدة في أي عهد إسلامي من مناصب القضاء و كانت هذه الأسرة تتسم بمناصب القضاء و تعرف بها و لذا أطلق على الحي الذي كان يعيش فيه الشيخ القاسمي "حارة القاضي" و كان والده الشيخ عبد الأحد القاسمي من تلامذة شيخ الهند الشيخ محمود حسن الديوبندي الأفذاذ، تخرج الشيخ عبد الأحد القاسمي في دار العلوم بديوبند، وقام بتدريس أمهات كتب الحديث النبوي الشريف في ولاية بيهار. و بجانب ذلك كان من كبار الخطباء والمناظرين في عصره.

دراسته:

نشأ و ترعرع الشيخ مولانا مجاهد الإسلام القاسمي في قريته الصغيرة و تلقى العلوم الابتدائية في مسقط رأسه من والده العلام الجليل عبد الأحد القاسمي، و تعلم اللغة العربية في مدرسة محمود العلوم (دملة) ثم سافر إلى المدرسة الإمدادية بدربنجا التي أسسها الشيخ الحاج إمداد الله المهاجر المكي. و بعد ذلك قصد إلى دار العلوم مئونات بنجن بولاية اترابراديش و تخرج على علمائها ثم شد رحاله في عام ١٩٥١-١٩٥٥ الميلادي إلى دار العلوم بديوبند الشهيرة لإرواء غليله العلمي و نهل من مناهلها العلمية الصافية النقية، و تلمذ على أساتذتها العباقرة الذين يجمعون بين العلم والأدب و سعة الفكر و دقة النظر أمثال أستاذ الأساتذة العلامة

محمد إبراهيم البلياوي والشيخ حسين أحمد المدني والشيخ فخر الحسن المرادآبادي والشيخ محمد حسين بيهاري والشيخ اعزاز علي والشيخ مناظر حسن الكيلاني و غيرهم من الأساتذة العمالقة في ذلك العصر. ونبغ في فن التفسير للقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والبلاغة والمعاني والبيان واللغة العربية و آدابها و المنطق والفلسفة و تخصص في الفقه الإسلامي حتى نال شهادة الفضيلة من هذه الدار المعروفة بتفوق.

و كان الشيخ مجاهد الإسلام القاسمي شخصية بارزة جامعة شاملة قل أن يجود الزمان بمثلها. فلم يكن الشيخ المرحوم عالما جليلا و فقيها نابغا واسع الإطلاع و عميق الفهم فحسب، بل كان معلما قديرا و قاضيا خبيرا متمكنا من اللغة العربية والإنجليزية والفارسية والأردية والهندية و مفكرا إسلاميا كبيرا و ممثلا جليلا للفكرة الإسلامية في الهند و خطيبا مصقعا تصغي إليه الآذان و تهفوا إليه القلوب و تنجذب إليه الأنظار و زعيما شعبيا يقود الأمة إلى سواء السبيل و داعيا إلى الله و رسوله صلى الله عليه وسلم بالحكمة والموعظة الحسنة و حكيما يواجه تيارات معادية بقوة و حكمة في آن واحد.

و ليس على الله بمستنكر

أن يجمع العالم في واحد

التدريس:

لقد استهل فقيد الأمة حياته التدريسية على إيماء الشيخ حسين أحمد المدني و تم تعيينه كأستاذ للفقه والحديث النبوي الشريف في الجامعة

الرحمانية بمونغير بولاية بيهار و درّس ابتداء من الكتب الأساسية إلى أمهات كتب الفقه و الحديث. وقطع صلته بالتدريس لسنوات ثم بدأ يدرس في عام ١٩٦٩ على إيماء أمير الشريعة الشيخ منة الله الرحماني أحد أفذاذ هذه الأمة وكان خير مدرس و لم تمض أيام حتى نال إعجاب الشيخ منة الله الرحماني و صار يعد من الأساتذة البارزين للجامعة و حظي بالشعبية لدى الطلاب إلى حد تحلقوا حوله و أحبوه.

منصب القضاء في الإمارة الشرعية لولايتي بيهار و أريسه:

و خلال أيام التدريس في الجامعة الرحمانية بمونغير أدرك الشيخ منة الله الرحماني في شخصية مجاهد الإسلام القاسمي الجامعية والاعتدال والتسامح و رحابة الصدر والتواضع و الإخلاص والصدق والوفاء والتفقه في الدين والتمسك بأوامر الدين والالتزام بشعائره و رأى فيه مواهب وكفاءات تؤهله للقضاء والإفتاء فاختار ليتولي منصب القضاء في إمارة الشريعة لولايتي بيهار و أريسه، و هي منظمة شرعية دينية إسلامية فريدة من نوعها في الأعمال والأهداف و هي قديمة تتأصل جذورها في ثلاثة أرباع القرن، و من أهدافها تنفيذ الشريعة و تطبيقها في حياة المجتمع الإسلامي الهندي لكي يحافظ المسلمون على كيانهم الإسلامي و تعيين الدعاة والقضاة ورجال الإفتاء في طول البلاد و عرضها.

تولي شيخنا المجاهد منصب القضاء للإمارة الشرعية في وقت كانت الإمارة تمر بأوضاع حرجة و تعرضت للشلل العملي منذ زمان إذ نفخ فيها الشيخ القاسمي روحا جديدة و أثبت كفاءته منقطعة النظير تجاه

تنفيذ الشريعة الإسلامية و تطبيقها في المجتمع الإسلامي و أدى واجباته وأحسن أداء في مجال القضاء والإفتاء حتى عرف بلقب" القاضي" وأصبحت لفظ "القاضي" جزءا لا ينفك من اسمه بل غلب على اسمه الأصلي، وتقدمت الإمارة الشرعية و تطورت و ازدهرت وأصبحت بمثابة شجرة طيبة أصلها ثابت و فرعها في السماء، و ذاع صيتها خارج ولايتي بيهار و أريسه. و لقد وهب نفسه للإمارة و ظل يخدم كقاضي القضاة ونائب أمير الشريعة لولايتي بيهار و أريسه بالالتزام من عام ١٩٦١ للميلاد إلى آخر أنفاسه.

الأعمال الميدانية:

ولم يحدد الشيخ القاسمي مسؤولياته تجاه القضاء والإفتاء داخل مبني الإمارة الشريعة فحسب بل وسع دائرة أعباءها إلى الأعمال الميدانية تحت لواء الإمارة و قام مع رفقاءه بجولات مضنية في الأرياف والقرى والمدن للتعرف على أحوال المسلمين الدينية والاجتماعية والتعليمية والاقتصادية و قام بفصل الخصومات فيما بين المسلمين و كان يسعى سعيا مشكورا لرفع مستوى المسلمين في المجالات الاجتماعية بأجمعها من الدين والتعليم والاقتصاد والسياسة. وكان يعين على نوائب الدهر و يقدم الإعانة والإغاثة للمحتاجين والفقراء والمعوزين والمنكوبين نتيجة الكوارث الطبيعية والاضطرابات الطائفية بدون أي تميز على أساس الديانة والعنصر والحضارة.

و بما أن فقيد الأمة كان همه البالغ تربية الشباب في مجال العلم والدراسة والعمل على المنهج الإسلامي الخالص و إعدادهم لمواجهة

الأوضاع الحرجة و لحل القضايا الفقهية المستجدة، فأسس "المعهد العالي للقضاء و الإفتاء تحت إشراف الإمارة الشرعية، و قد أنجب هذا المعهد جيلا قديرا ذا كفاءة بارزة في مجال القضاء والإفتاء" كان ولا يزال يلعب دورا فعالا في إعداد دفعة بعد دفعة من القضاة والمفتيين المتضلعين في العلوم الشرعية والعالمين بكنه القوانين الإلهية.

نظرا إلى حاجة ملحة إلى تنفيذ الشريعة الإسلامية و تطبيقها في المجتمع الإسلامي في أرجاء الهند، أقام الشيخ القاسمي دور القضاء والإفتاء في أنحاء البلاد كلها منها دلهي الجنوبية والشرقية و برهان فور وأكل كنوان و ممبئ و حيدرآباد و بنغلور و لكناؤ وماليغاؤن. وفي كل دار قاضي يقضي بالقضايا الفقهية والعائلية بموجب الشريعة الإسلامية الغراء وهكذا يتجنب المسلمون من الخطأ و الفساد.

تأسيس المجلس الملي لعموم الهند:

و قد أتى على الأمة الإسلامية الهندية أن من الأوان في القرن العشرين كاد أن يتشتت شملهم و يتمزق جمعهم و يتبدد اتحادهم إذ تولى هذا المجاهد الكبير زمام قيادة المسلمين. و قام بإنشاء المجلس الملي لعموم الهند عام ١٩٩٢ للميلاد.

من أهداف هذا المجلس جمع شمل المسلمين تحت لواء واحد و كلمة واحدة و منعهم من التشتت والتمزق والافتراق في أية مرحلة من مراحل الحياة والتصدي لرد القوي المعادية للإنسانية، والمجلس يهدف إلى إيقاظ الأمة الإسلامية من بياتهم العميق والقضاء على الأمية ورفع مستوى التعليم و ترويج الثقافة الإسلامية في حياة المسلمين أجمعهم، إن المجلس الملي لا

يعتمد على المظاهرات والاحتجاجات فقط لحلول القضايا والمشكلات التي يواجهها المسلمون بل إنه يتخذ إجراءات قانونية و دستورية لمواجهتها ولذا أقام المجلس قسما قانونيا في كل قرية و منطقة و يسعى لإعانة قانونية للمسلمين المظلومين والمنكوبين في أرجاء البلاد كلها. و قد نجح المجلس في تحقيق أهدافها إلى حد ما و نال سمعة عالية عبر البلاد و خارجها بسبب متابعته الدقيقة لمجريات الأمور على الساحة السياسية في الهند خاصة والعالم كله عامة.

صلته بهيئة الأحوال الشخصية الإسلامية في الهند:

ساير الشيخ مجاهد الإسلام القاسمي حركة هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية منذ تأسيسها و بذل مجهوداته الجبارة العلمية والنفسية لتنمية هذه الهيئة. فكان مستشارا قانونيا لها و مرجعا وحيدا في أوقات حدوث المشاكل القانونية. لأن الشيخ القاسمي كان له باع طويل في فهم كنه القوانين الدينية والعالمية على السواء، و قد رزق حظا موفورا من التفقه في الدين و فهم روح الشريعة الإسلامية الغراء و قدرة تامة لتفهيم القوانين العائلية و مقدرة خارقة على إقناع المحاميين والحقوقيين بموقف الإسلام والمسلمين.

و عند تورط مسلمي الهند في أزمة القيادة السياسية والاجتماعية حيث انقطعت آمالهم و أوشكوا على فقد وعيهم و ثقتهم تبعا لوفاة العلامة السيد أبي الحسن على الحسني الندوي الفاجعة إذ تصوبت الأعين على الشيخ مجاهد الإسلام القاسمي بسبب فراسته الإيمانية والذكاء والانفتاح الذهني والبصيرة التامة بأوضاع العصر وظروفه حتى تم اختياره كرئيس

هيئة الأحوال الشخصية للمسلمين في الهند التي تهدف إلى المحافظة على كيان المسلمين و هويتهم الإسلامية في الهند.

إجماع الأمة على شخصيته:

و الواقع أن فضل اختيار الشيخ الراحل كرئيس الهيئة يرجع إلى شخصيته و طبيعته التي تتسم بالوسطية و الاعتدال و تتفرد بالابتعاد عن كل نوع من الخلافات المسلكية. ولذا اجتمعت الأمة كلها على كلمته المتواضعة و كان له مكانة مرموقة بين جميع طبقات المسلمين في الهند على اختلاف مسالكهم ومذاهبهم و نظرياتهم، و كان له سمعة كبيرة بين صفوف العلماء والفقهاء في الفقه الإسلامي والشريعة الإسلامية كما كان محترما كل الاحترام لدي الفئات العصرية المثقفين المتنورين على السواء.

تأسيس مجمع الفقه الإسلامي:

و كان فقيد الأمة فارسا من فرسان مجال الفقه الإسلامي و القضاء والإفتاء و كان يشعر بحاجة ملحة إلى مجمع فقهي إسلامي يكون بنيانا مرصوصا ضد التدخل الخارجي في الفقه الإسلامي و سوء تفسيره من قبل المعارضين للشريعة الإسلامية، فأنشأ مجمعا للفقه الإسلامي الهندي وهو يهدف إلى تقديم الحلول للقضايا الفقهية المستجدة بعد الدراسات والمناقشات بين الفقهاء الماهرين و قام هذا المجمع بعقد أربع عشرة ندوة فقهية عالمية اشترك فيها العلماء و الفقهاء والهنود بالإضافة إلى الفقهاء والعباقرة العرب أمثال الفقيه الألمعي الشيخ تقي عثماني والمسؤول الأعلى لتنفيذ الشريعة الإسلامية في الكويت الدكتور خالد المذكور والفقيه السوري المعروف وصاحب كتب موسوعية عديدة الدكتور و هبة الزحيلي و أمين عام للمجمع

الفقهي لمؤتمر المنظمة الإسلامية الدكتور الحبيب بلخوجة والفقيه السوري الشهير و صاحب الموسوعات الفقهية الدكتور محمد رواس قلعجي و شيخ دولة قطر عبد الرحمن آل محمود و غيرهم.

و تكللت جهود المؤسس المخلصة المستمرة بنجاح باهر وفوز مبين و طار صيت هذا المجمع داخل البلاد و خارجها و حظيت بالشعبية والاهتمام لدى العلماء البارزين العرب بسبب أعمالها الفقهية الشيقة الخالدة.

ومن أبرز إنجازات مجمع الفقه الإسلامي أنه قام بطبع أربعة عشر مجلدا من أبحاث تلك الندوات التي نالت الاستحسان من قبل الأوساط الدينية والعلمية كما قام بإصدار عشرات من الكتب والرسائل المتعلقة بحلول القضايا الإسلامية المستجدة و مشكلات المسلمين الفقهية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية. وعن طريق المجمع استطاع الفقيه الراحل إعداد فئة كبيرة و جيل عبقري من الفقهاء الشباب المتمكنين من الاستفادة المباشرة من الكتب الفقهية المهمة القديمة والقادرين على تقديم دراسات فقهية قيمة مستفيضة للأمة.

إعتناءه بقيام المدارس و المعاهد الدينية للأمة:

إن قضية التعليم الديني للبنين والبنات المسلمات قضية لا يستهان بها في الهند خاصة في الأرياف والقرى. فأحس فقيد الأمة بهذه الحاجة الماسة ولم يبخل في تكريس مجهوداته الجبارة لنشر التعليم والقضاء على الأمية بين مسلمي الهند فقد أنشأ مدارس و مكاتب دينية في المناطق الريفية التي كان ساكنوها جاهلين عن المبادئ الإسلامية و أصولها حتى عن " ما هو الإسلام و من هو رسول الله صلى الله عليه وسلم" و لم تنحصر دائرة

المكاتب والمدارس في المباني الخاصة بل قام الشيخ بتعيين الحفاظ والأساتذة في مساجد و هكذا قام بتذكير ذكرى أصحاب الصفة من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين وهبت ريح الإيمان الطيبة في القرى والأرياف والمدن وأصبح المسلمون يعرفون حقيقة الإسلام و مقتضياته.

و على صعيد آخر كان أبناء مسلمي الهند و خاصة مسلمو ولاية بيهار مكتوفي الأيدي أمام العلوم التقنية و غير متسلحين بأسلحة تكنولوجيا المعلومات بسبب عدم قدرتهم على النفقات المالية الباهظة للالتحاق بالمعاهد التقنية الحكومية أو غير الحكومية و لم يكن أباءهم قادرين على تحمل نفقاتهم بهذا القدر الكبير، فقد وفر الشيخ القاسمي فرصا أمام فلذات أكباد المسلمين المحتاجين والمعوزين لاكتساب العلوم التقنية بإنشاء معاهد تقنية في طول البلاد و عرضها منها مدينة فورنيا و دربنجا و ساتي، و من فضل هذه المعاهد لقد حصل الشبان العطل على وظائف مهمة و أخرجوا أنفسهم وأسرهم من حياة البؤس والشقاء إلى حياة التنعم والسعادة، و إلى جانب ذلك قام بإنشاء الجامعات والكليات للعلوم العصرية الحديثة على أحدث طراز مع الحفاظ على الهوية الإسلامية وهكذا قام بإنهاض المسلمين من جديد في مجال التعليم.

و يجدر بالذكر أن هذه المدارس والكليات لا تغلق أبوابها على أحد على أساس الديانة والحضارة ويستفيد من مناهلها العلمية الهندوس على حد سواء مع المسلمين، و هذا يخلق بيئة ملائمة للتعاضد والتآخي والتعاطف والتراحم والتعامل والإنسجام الطائفي فيما بين الأغلبيات والأقليات في البلاد، وهذه منصة جيدة لتبليغ رسالة الإسلام السمحة إلى إخواننا الهندوس و غيرهم.

دوره في إصلاح المقررات الدراسية:

كانت أوضاع المدارس الدينية في ولاية بيهار التعليمية تتدهور يوما فيوما و خريجو المدارس كانوا غير متأهلين لأداء مسؤلياتهم الدينية والعلمية و ما كانوا مستطعين لأن يواجهوا تحديات الزمان و يسدوا حاجيات العصر و متطلباته بسبب المقررات الدراسية الغير صالحة للأجيال الناشئة و عدم اهتمام المسؤولين عن المدارس التي تدار على التبرعات من قبل عامة الناس من المسلمين بإصلاح الحال في المدارس، فشمر الشيخ مجاهد الإسلام القاسمي عن ساق جده و برز "وفاق المدارس الإسلامية لولاية بيهار" في حيز الوجود نتيجة لجهوده المشكورة في عهد أمير الشريعة الخامس الشيخ عبد الرحمن، و كان الشيخ القاسمي رئيسا لهذا الوفاق الذي يشمل أكثر من مأتي مدرسة دينية غير ملحقة بالحكومة. و بما لا شك في أن هذا الوفاق قد رفع مستوى التعليم المتدهور في ولاية بيهار في مدة قليلة.

أسفاره و رحلاته:

جال فقيه الأمة الراحل في أنحاء المعمورة كلها شرقا و غربا وجنوبا و شمالا مصدعا بكلمة الحق و داعيا إلى جمع شمل المسلمين عربا و أعجميا للوقوف في وجه مؤامرات صهر كيانهم الإسلامي و تذويب هويتهم الإسلامية في بوتقة تيار جارف غير إسلامي. و حضر الندوات والمؤتمرات والاجتماعات الفقهية والدينية والاجتماعية في كل بلد من المملكة العربية السعودية و الكويت و دولة الإمارات العربية المتحدة وأمريكا و بريطانيا و إيران و باكستان و بنجلا ديش و بخارا و سمرقند وبروناني وما إلى ذلك.

والجدير بالذكر أن الشيخ القاسمي قد طلب من قبل حكومة جنوب أفريقيا غير مرة لتشكيل و تدوين القوانين للأحوال الشخصية الإسلامية لمسلمي جنوب أفريقيا مراعيا بقوانين البلاد والحقوق. و إن دل هذا على شئ فإنه يدل على دراسته العميقة للشريعة الإسلامية و دقة نظره و علو كعبه في القوانين الدولية.

نظرياته في القضايا الاجتهادية:

و من أبرز ميزات الشيخ مجاهد الإسلام القاسمي اعتداله و وسطيته في الأفكار فكان متصلبا في آراء السابقين الصالحين من أهل السنة والجماعة في أبواب المعتقدات و لكن بالرغم من عدم انسجامه في الآراء كان حريصا على وحدة كلمة الأمة و جمع شملها على أساس كلمة واحدة. وكان يؤكد بجمع القوى الاجتماعية في القضايا المشتركة لمسلمي الهند فأصبح الاعتدال والوسطية في القضايا الفقهية من طبيعته كما كان يرفض رفضا باتا التجدد و الإباحية باسم الاجتهاد التي لا تلائم نصوص الشريعة. و في جانب آخر كان ينكر التقليد الجامد للفقهاء في ضوء تغيرات الأوضاع و مقتضياتها.

و فيما يتعلق بالاجتهاد فليس هو من القائلين بأن أبواب الاجتهاد قد أغلقت. لأن مقدرة الاجتهاد هي التي تمكن المرء من حق القضاء والإفتاء ومع ذلك كان من المعترفين بأن المجتهدين مفقودون في عالمنا المعاصر. وأما نظريته تجاه القضايا المستجدة فكان يركز جل اهتمامه على دراسات دقيقة و مناقشات مستفيضة جدية جماعيا بدلا من أن تبذل جهود فردية وإن تأسيس المجمع الفقهي الإسلامي خير شاهد على نظرياته في هذا الصدد.

المناصب البارزة التي تولاها:

١ـ الرئيس لهيئة الأحوال الشخصية للمسلمين لعموم الهند

٢ـ المؤسس والمسؤول الأعلى للمجلس الملي لعموم الهند

٣ـ مؤسس و أمين عام للمجمع الفقهي الإسلامي (الهند)

٤ـ عضو مجمع الفقه الإسلامي لرابطة العالم الإسلامي

٥ـ عضو خبير الفقه الإسلامي الدولي بجدة.

٦ـ عضو الشرف للهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بالكويت.

٧ـ عضو المجمع العلمي العالي بدمشق ، الشام.

٨ـ نائب أمير الشريعة و قاضي القضاة في الإمارة الشرعية لولايتي بيهار و أريسه

٩ـ رئيس هيئة القضاء بالهند

١٠ـ أمين عام المعهد التقني التذكاري للشيخ منة الله الرحماني في بتنة عاصمة ولاية بيهار

١١ـ أمين عام مستشفى الشيخ سجاد التذكاري في بتنه، بيهار

١٢ـ رئيس المعهد العالي للتدريب في القضاء و الإفتاء.

١٣ـ رئيس وفاق المدارس الإسلامية بيهار

١٤ـ العضو الأساسي لمعهد الدراسات الموضوعية بنيودلهي.

١٥- العضو الاساسي لمؤسة الأمين التعليمية ببنغلور عاصمة ولاية كرناتكا.

١٦- رئيس تحرير صحيفة "بحث و نظر" الدورية و أشرف على صحيفة "ملي اتحاد" الشهرية الأردية.

الجوائز التي فاز بها الشيخ القاسمي:

١- جائزة الشاه ولي الله من قبل معهد الدراسات الموضوعية، نيو دلهي.

٢-جائزة السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي من قبل منظمة المسلمين الأمريكيين.

٣-الجائزة الفقهية من قبل مجلس الشورى العالي لتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية الكويت.

٤- جائزة الشخصية الإسلامية البارزة من قبل منظمة التعليم الإسلامي، جنوب الهند.

٥- جائزة القيادة من قبل هيئة الأمين التعليمية، بنغلور.

التصنيف و التأليف:

و بما أن فقيد الأمة كان جبل على حب العلم و المعرفة و البحث و التحقيق فلم ينس دوره كعالم و فقيه مع تعدد مسؤولياته و شغله الشاغل، وأخرج العديد من الكتب و المؤلفات التي تتجمل بها المكتبات الإسلامية ومما يثرى العلوم الفقهية إثراء قيما.

مؤلفاته العربية:

١ - الوقف، (طبع في بيروت لبنان)

٢- نظام القضاء في الإسلام (طبع في بيروت لبنان)

٣- قضايا معاصرة فقهية (طبع في الهند)

٤ - فقه المشكلات (طبع في الهند)

٥- الذبائح (طبع في الهند)

٦- صنوان القضاء و عنوان الإفتاء (تحقيق في أربع مجلدات، طبع في الكويت)

٧- دراسة فقهية (طبع في الهند)

٨- دراسة علمية (طبع في الهند)

٩- بحوث فقهية (تحت الطبع)

مؤلفاته في اللغة الأردية:

١ - الضرورة والحاجة

٢-أخلاقيات الطبيب

٣- الاشتراط في النكاح

٤ - الأوقات

٥- الحج والعمرة

٦- البيع قبل القبض

٧- أشكال التجارة الحديثة

٨- الأسهم والشركات

٩-الاستنساخ البشري

١٠- خطبات بنغلور

١١- الولاية في النكاح

١٢-البيع بالتقسيط

١٣ مجلة الفقه الإسلامي الأول

١٤- مجلة الفقه الإسلامي الثاني

١٥- مجلة الفقه الإسلامي الثالث

١٦- مجلة الفقه الإسلامي الرابع

١٧- مجلة الفقه الإسلامي الخامس (أ)

١٨- مجلة الفقه الإسلامي الخامس (ب)

١٩- مجلة الفقه الإسلامي السادس (أ)

٢٠- مجلة الفقه الإسلامي السادس (ب)

٢١- نظام الفتاوى. الأول

٢٢- نظام الفتاوى الثاني

٢٣- القضايا الطبية (في اللّغة الإنجليزية)

مجلة بحث و نظر:

و من أعمال المجاهد المرحوم الفقيهة الجليلة إصداره مجلة" بحث ونظر" الدورية، الصادرة في نيو دلهي. ولامراء في أن هذه المجلة مجلة جامعة شاملة و فريدة من نوعها في اللغة الأردية التي تحوي بحوثا فقهية أصلية و مقالات تحقيقية حول القضايا الفقهية والفتاوى والفصل في الخصومات والتعارف بشخصيات علمية بارزة والكتب المهمة النادرة كما تشمل المجلة التعليقات على الكتب الصادرة حديثا بالإضافة إلى الإفتتاحية الاستعراضية القيمة للقضايا الملية والوطنية.

و مما لا شك في أن هذه المجلة ثروة قيمة لا مثيل لها لأصحاب العلم والمعرفة. و قد نالت سمعة عالية في أوساط العلماء والفقهاء عبر البلاد بسبب أهدافها السامية وتقديم الحلول للقضايا الفقهية المستجدة أمام الشعب الإسلامي الهندي في لغته الأم بأسلوب سهل ممتنع.

إن الهند تعتز و تفتخر بمآثر الشيخ الراحل الباقية و جلائل أعماله وخدماته تجاه البشرية ورفاهية الأمة والسمعة الحسنة للوطن في العالم العربي والإسلامي:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

هوية المسلمين في الهند المعاصرة

بقلم : د/ رشيد الدين خان
تعريب : أ.د. شيث محمد إسماعيل الأعظمي

منذ طلوع فجر الاستقلال السياسي في الهند ١٩٤٧م، شرعت عملية بناء الدولة الديموقراطية العلمانية الفيدرالية في شبه القارة الهندية. وفي الحقيقة أن الأمر في جوهره كان أكبر من ذلك بكثير، إذ كان بالأساس بدأ لبناء حضارة تستوعب شعبا حديث التحرر. فقد أصبح الشعب الهندي، متعدد الأعراق و اللغات و الديانات و المتحرر حديثا من قيود عبودية الاستعمار يجاهد من أجل التحرر من استغلال النظام الإقطاعي والنزعة الدينية التي تحتاج إلى الانفتاح والمعرفة، فضلا عن التفاوت الاجتماعي والاقتصادي.

وقد كانت التحديات التي واجهت بناء هوية جديدة جد خطيرة، فهناك حمل ثقيل من ميراث الطائفية البائد و العلاقات الإقطاعية و القبيلة التي حولت التقاليد إلى أغلال و قيود، و هناك أيضا مشكلة فقر العامة التي كانت كفيلة بإثبات العزم و الهمة، ثم هناك الاختلالات الاقتصادية الإقليمية

التي تتواجد في انفجار سكاني لا يوجد في ما يكبح جماحه و هناك ندرة الموارد و تدهور التكنولوجيا، و هناك المشكلة المربكة المتجسدة في الموازنة بين الأشكال العديدة للمتطلبات الجوهرية و بين الحاجة الملحة والأساسية لخلق هوية وطنية فيدرالية فاعلة، و قبل ذلك كله، هناك التوترات و الصراعات التي تولدت من جهة الحدود منذ فجر الاستقلال الهندي التي احتوت على تعقيد أكبر بالأيدي المتعدية على السياسات ذات السيطرة الكبرى التي تزهر أحيانا عن طريق التوفير الواسع و وسائل الأثر الدبلوماسية و للآخرين عن طريق الوسائل الزائفة أو عن طريق الاستراجيات الدولية الواضحة التي قد هدد فتحها سلطتنا المحلية الجديد نيلها. و الحقيقة أنه عندما يلقي المرء نظرة استرجاع لمجريات هذه العقود الأربع، ينتابه الذهول و الارتباك لهذه المؤامرة التي نسجت الظروف خيوطها و التي كانت لتغرق شعبا يتسم بقدر أقل من التشبث بالحياة والحيوية التي تزكى رغبته في النجاة.

و لا تزال عملية السعي نحو حضارة جديدة في الهند تمضي في طريقها، و هي العملية التي انتهجت طريق الإقناع و الإجماع و اعتمدت على قيم الديموقراطية مثل المساواة و حق البالغين في الانتخاب و وجود مؤسسات تمثل الشعب و حكم القانون و علمنة الدولة و عدالة التوزيع الاقتصادي.

و لم يقتصر الحل الديموقراطي للمشكلات الوطنية على تضمين موافقة و التزام قطاع الأغلبية و لكن أيضا قطاعات الأقلية و مما لا شك فيه أنه في ظل الديموقراطية فقط تستطيع الأقلية أن تتوق، بل و تطالب بأن تعامل معاملة كريمة و أن تاخذ مأخذ الجد من جانب الأغلبية، ذلك أن

الديموقراطية في عموم تحليلاتها تعامل الإنسان على أنه إنسان و ليس مجرد عضو في جماعة تشكلت اعتمادا على الميلاد و العرق و الديانة واللغة و ما شابه ذلك. و لعل ذلك يتضح جليا ليس فقط في مقدمة دستور الهند و بنوده و إجراءاته،و لكن أيضا في عمل النظام السياسي الهندي ذاته.

ذلك هو السياق و الإطار اللذان ينبغي أن يحصر المرء و يدرك في حدودهما صفة هوية المسلمين في الهند المعاصرة و عملية نشوئها، تلك الهوية التي تشكلت من خلال تفاعل خمسة عوامل هي:

(١) المبادئ و القيم الأساسية التي دعا إليها الإسلام

(٢) تراث الإسلام في الهند

(٣) وضع المسلمين الثقافي و الاجتماعي و مشكلة المسلمين

(٤) صورة المسلمين الذاتية في الهند

(٥) عملية إنشاء دولة فيدرالية في الهند

المبادئ والقيم الأساسية التي دعا إليها الإسلام:

خلال عملية التنمية البشرية الطويلة و المعقدة، تجلى الإسهام التاريخي للإسلام لنظام العلاقات فيما بين الأفراد و فيما بين الجماعات في تأكيده على خمسة مفاهيم أساسية هي : التوحيد و شمولية الإيمان " الدين" أخوية البشرية، الوحدة العضوية بين الالتزامات تجاه الله و الالتزامات تجاه مخلوقاته "أي ارتباط حقوق الله بحقوق العباد" العدل كمبدأ محوري للحكم والسلام الاجتماعي و النظام، و امتزج ذلك بالرحمة التي هي صفة من

صفات الله، التي تتعد على كل الاعتبارات الأخرى للقضاء على النزعات والهموم.

وقد سعى الإسلام إلى توحيد الجنس البشري من خلال إجلال الله الواحد، الكل الباطن كلي القدرة و الوجود و العلم، الله الذي هو رب العالمين و ليس رب قبيلة أو جنس أو شعب أو أمة أو دولة أو منطقة بعينها، و ذلك ما أفضى، نظريا، إلى وجود نقطة جديدة تتمحور حولها الروابط الاجتماعية.

في توضيح هذه الفكرة القرآنية، هناك أحاديث لا حصر لها للرسول من بينها ما أقره في حديثه بمناسبة حجة الوداع من أن الناس سواسية.

و أن لا فضل لعربي على أعجمي و لا أعجمي على عربي و لا لأبيض على أسود و لا لأسود على أبيض إلا بالتقوى و أن الله لا ينظر إلى صور عباده أو أشكالهم و لكن ينظر إلى أعمالهم. و في مضمون هذا الحديث تجسدت محصلة التصور الإنساني في الإسلام و تأكد إدراك وحدة الله تتضمن أيضا و على نحو مهم إدراك أخوية الجنس البشري و المساواة بينه. و هو الأمر الذي شكل قفزة عظيمة إلى الأمام في التاريخ الإنساني.

وفي تفسير للقران الكريم الذي قدمه تحت عنوان " ترجمان القران" ناقش مولانا أبو الكلام ازاد (١٨٨٨-١٩٥٨م) مناقشة متحلية بقوة الحجة، وحدة العقائد الدينية " وحدة الدين" التي أفسدها الاختلاف المحتوم في شرائع الأديان المختلفة، الذي حتمه اختلاف البيئات الاجتماعية و الثقافية والانقسامات الشكلية و المؤسسة التي أوجدها أتباع الديانات المختلفة و في تعليقه الرائع البديع على سورة الفاتحة " التي وصفها مولانا أبو الكلام أزاد

بأنها المقدمة الطبيعية لدراسة القران الكريم " أكد مولانا ازاد على فكرة "الربوبية" كجوهر أساسي للإسلام في مناشدته و صلاحيته العالميتين، فالربوبية مبدئيا، تستلزم إدراك الله كرب للعالمين، و كلمة رب في اللغة العربية تحتوي معناها " المعز" و المقيت" و "المطعم" و " المعيل" لكل خلقه، و نظام الربوبية يسمو على جميع انقسامات البشرية و تشر ذمها والتي اعتمدت على اعتبارات مختلفة على سبيل المثال العقيدة و اللون والمنطقة و الدولة فالرب إذا ليس إلها لشعب واحد و إنما هو إله لكافة الشعوب، كذلك أكد مولانا أبو الكلام ازاد أن هناك ثلاث صفات لله ذكرت في القران الكريم على نحو متكرر، من ثم يجب الاعتراف بها كصفات أساسية و هذه الصفات هي الرحمن " الكريم" الذي يعطي حتى دون أن تطلب منه " الرحيم" الذي يستجب عند الطلب و يعفو" مالك يوم الدين، مالك يوم الحساب الذي سيقيم العدالة.

أولى أبو الكلام ازاد، في سياق تفسيره، اهتماما بالغا بالمنطق "العقل" كوسيلة لإدراك و تفسير جميع الأمور سماوية كانت أو دنيوية وخلص إلى أنه عندما يرشدنا الله إلى الطريق الصحيح " اهدينا الصراط المستقيم" فان هذا الطريق لا يختص بأي عرق أو أمة و إنما هو طريق يجمع عليه ذوو العقل الراجحة أيا كانت الفترة أو العرق اللذان ينتمون إليهما، لتأكد بذلك أن الالتزام بالإنسانية الشاملة هو في حقيقة الأمر جوهر رسالة القران الكريم.

تراث الإسلام في الهند:

الإسلام في الهند هو نقطة التقاء على الأقل لأربعة اتجاهات رئيسية متنوعة إقليميا و لغويا و ثقافيا، تمثلت في العرب و الأتراك و الفرس

والأفغان و قد تجمعت لترسى الأساس لتراث إسلامي جديد و متميز في الهند و الحق أن ما يكسب روح الإسلام فهذه الأرض العريقة صفة الجدة أن الإسلام لم يواجه في أي مكان أخر و لما يزيد على ألف عام حضارة مختلفة على نحو جذري و أكثر مرونة في جودها مثل الحضارة الهندية التي لم يذبها الإسلام أو يتمثلها، على نحو كامل و التي لم تستطع بدورها أن تذيب الإسلام أو تمثله مما جعل من الإسلام في الهند ظاهرة هندية خالصة بكافة أوجهها.

و لعل تأثير الصوفية كان أكثر التأثيرات وضوحا في تكوين الروح الإسلامية في الهند، فقد كانت الهند محل ظهور العديد من الفرق الصوفية كما لاقت فيها الفرق الصوفية التي نشأت خارجها أعلى درجة لها من الشعبية. و تعد الهند اليوم أكبر مركز للصوفية في العالم، و أكثر الفرق الأربع شهرة في الهند هي القادرية و الجشتية و النقشبندية و السهروردية والصوفياء على سبيل المثال : الخواجه معين الجشتي لأجمير (١١٤٣-١٢٣٤م) و الخواجه قطب الدين بختيار الكاكي (١٢٣٤م) و الخواجه فريد الدين غنج شكر المعروف بـ" بابا فريد" (١١٧٥-١٢٦٥م)، الخواجه نظام الدين أولياء (١٢٣٦-١٣٢٥م) و الخواجه نصير الدين "سراج دلهي" (١٣٥٦م) و الخواجه سيد محمد غيسو دراز (١٤٢١م) الذين كانوا بالأساس شخصيات إنسانية بارزة اجتذبت أناسا من كافة الطوائف والعقائد. و قاتلوا مع الحكام الذين سيطروا في عهدهم لأجل العدل و الأمن و السلام و حقوق الإنسان.

تأثر الإسلام في الهند على المستوى الشعبي على وجه الخصوص تأثرا كبيرا بالطرق الصوفية أكثر من تأثره بشريعة العلماء فقد اعتبر هؤلاء

الأولياء الصوفيون بين أفضل النماذج البشرية في أي مكان العالم و قد قاموا بسد الفجوة بين التقليديين و الابتداعيين، بين الأغنياء و الفقراء بين المجموعات و المجتمعات كما خففوا من حدة العداء بين الطوائف و بذلوا الجهد من أجل التوفيق بين المعتقدات الدينية المتعارضة و شجعوا الانتقاء الروحي و وضعوا الإنسان في مركز كافة الاهتمامات. و عكست فلسفاتهم إيمانهم بوحدة الوجود و اعتبروا " الحب" أسمى أوجه التعبير و فد أدخلت الجدائل الهندية - الإسلامية المتضافرة إلى نسيج الكيان الهندي الوطني تصميما ثريا من " الثقافة المركبة عن طريق تضفير خيوط النسك و التعبد مع تقاليد الصوفية الإ سلامية و التقاليد الاجتماعية الهندية مع الأعراف التركية الإيرانية للحياة الجماعية، مما خلق تركيبة ثقافية متداخلة، عكست خلالها قيم الإنسان و أخلاقياته الاجتماعية روحا جديدة.

و ليس من المدهش إذا أن ندرك أن الثقافة المركبة في الهند نشأت في جو من المصالحة و ليس الدحض، و التعاون و ليس المواجهة التعايش السلمي و ليس الإبادة المتبادلة.

يمكن تحديد الجذور التاريخية للثقافة المركبة في الهند من خلال دراسة الفترة بين القرنين الثاني عشر و السادس عشر للميلاد عندما بدأت في السهول الكانكاوية- الهندية علمية مستمرة لامتزاج و خلط الثقافات بين التراث الذي نمت جذور في ثلاث مهود ثقافية تسمى بـ " العربية الآسيوية الوسطى- الإيرانية الهندية".

وقد ساهم في تكوين هذه الثقافة عدد من المتصوفين و الأولياء والمواطنين المتنورين من زعماء و شعراء و موسيقيين و فنانين و حرفيين و رواة و مصلحين اجتماعين و زعماء سياسيين وطنيين علمانيين و رجال

دولة و عبر تيار الوعي المتخلص في قيم الثقافة المركبة عن ذاته في حياته و أعمال بعض أكثر الشخصيات تنويرا على مر القرون. و من بينهم بابا فريد (١١٧٥-١٢٦٥م)، الذي ما اعترف بجد أعلى للأدب البنجابي فحسب بل بولي أثر في كبير (١٤٤٠-١٥١٨م) و كرونانك (١٤٨٩-١٥٣٩م) كليهما أثرا عميقا والمسلمون و السيخيون و الهندوس كلهم بجلوه تبجيلا متساويا و أمير خسرو (١٢٣٥-١٣٢٥م) كان شاعرا و فيلسوفا و مؤرخا أخباريا و موسيقيا و صوفيا و رائدا فائقا للثقافة المركبة، و الإمبراطور المغولي أكبر (١٥٤٢-١٦٠٥) الذي بادر عملية التوافق بين الهندوس والمسلمين على المستويات السياسية و الاجتماعية و الفكرية. و الشاعر والمتودد عبد الرحيم خان خانان (١٥٥٦-١٦٢٧م) إنه ليس فقط معروفا بـ"كرشنا بهكت" بل انه رائد شعر اللغة الهندية الذي نظم في وزن "بارفي" المعروف و البحر الشهير الذي اتخذه فيما بعد غوسوامي تولسي داس (١٥٤٣-١٦٢٣م). و معاصره في نظم بارفي رمائن و محمد قلي قطب الشاه (١٥٦٥-١٦١١م) كان أحد من الشعراء المبكرين للغة الأردية و حاكم ولاية كولكنده و مؤسس مدينة حيدراباد و دار شكوه (١٦١٥-١٦٥٩م) كان صوفيا و أميرا مغوليا و مترجم أبانيشد إلى اللغة الفارسية و أنه وقف حياته للثقافة المركبة و ميرزا غالب (١٧٩٧-١٨٦٩م) كان شاعرا شهيرا بارزا باللغة الأردية و محبا للإنسانية و المفكر الذكي مولانا أبو الكلام ازاد الذي كان مفسرا ابتداعيا للثقافة الإسلامية و مؤيدا للثقافة المركبة و الثقافة الوطنية.

الوضع الاجتماعي الثقافي في الهند و مشكلة المسلمين:

تشكل نسيج الوضع الاجتماعي الثقافي الهندي من خيوط تمثل اللغة و مجموعات اللهجة و الطوائف الدينية و النحل و الطبقات و المجموعات الإقليمية و شبه الإقليمية و البنيات العريقة و أنماط الثقافة بتداخل هذه الخيوط فيما بينها طورت الهند تاريخيا على العصور حضارة موحدة.

ولذلك فان الوحدة الهندية ذاتها هي مفهوم فيدرالي و هي ليست بالطبع وحدة نظام الحكم الوحدوي و إنما الوحدة التي وحدها الاعتماد المتبادل فيما بين الكيانات الاجتماعية و الثقافة المختلفة.

و الهند هي ثاني اكبر دولة في العالم من حيث تعداد السكان و هي سادس اكبر دولة في العالم من حيث المساحة (٢،٢٧ ملايين م.ك.) و على أرض الهند يعيش أتباع كافة الديانات الثمانية الرئيسية في العالم. وفقا للإحصاء الرسمي في عام ٢٠٠١م فهي كما يلي :

(١) الطبقات الهندوسية	٦١،٢%
(٢) و الطبقات الملحقة	١٤،٦%
(٣) و المسلمون	١١،٦%
(٤) و المسيحيون	٢،٤%
(٥) السيخيون	٢%
(٦) و البوذيون	٧%
(٧) و الجينيون	٥,%
(٨) و الزرادشيون	١,%

(٩) اليهوديون ,١%

(١٠) و سكان القبيلة ٧%.

و الهند ليست دولة متعددة الديانات فقط إنما أيضا مجتمع متعدد اللغات. فإلى جانب اللغة الإنكليزية التي هي إحدى اللغات الهامة للإدارة والقانون و التعليم العالي و الأكاديمي و البحث و الصحافة و المواصلات الدولية و هناك خمس عشرة لغة رئيسية معترف بها في الهند. في الإحصاء الرسمي كان تناسبها فيما يلي:

(١) اللغة الاسامية (٩ ملايين)

(٢) و اللغة البنغالية (٥١،٥ مليونا)

(٣) و اللغة الكجراتية (٣٣،١ مليونا)

(٤) و اللغة الهندية (٢٦٤،١ مليونا)

(٥) و اللغة الكنرية (٢٦،٨ مليونا)

(٦) و اللغة الكشميرية (٣،١ ملايين)

(٧) و اللغة الملائية (٢٥،٩ مليونا)

(٨) و اللغة المراتهية (٤٩،٦ مليونا)

(٩) و اللغة الآرية (٢٢،٨ مليونا)

(١٠) و اللغة البنجابية (١٨،٥ مليونا)

(١١) و اللغة السنسكريتية (٢٩٤٦)

(١٢) و اللغة السندهية (١٩،٩ مليون)

(١٣) و اللغة التاملية (٤٤،٧ مليونا)

(١٤) و اللغة التيلوغية (٥٤،٢ مليونا)

(١٥) و اللغة الأردية (٥٣،٣ مليونا) و علاوة على ألف و ثمانمائة لغة أخرى و آلاف اللهجات.

تشكل الهندوسية و الإسلام الديانتين اللتين يدين بهما أكبر عدد من سكان الهند كما انهما الديانتان الوحيدتان اللتان تنتشران على امتداد الهند. وكافة المجتمعات الدينية الأخرى إقليمية و شبه إقليمية في أبعادها. والمسيحيون منتشرون في ثلاث مناطق : شمال - الغربية (ناغاليند وميغهاليه و مني بور) و الجنوب الغربية (كيرالا و كوا) و في اندمان و السيخيون يسيطرون فقط في ولاية البنجاب مع تناسب ضخم في مدن جندي كره و دلهي و كمجتمع ثاني في ولاية هريانه و البوذيون يعيشون في تناسب ضنيل فقط في ولاية اروناتشل براديش و الجينيون يسجلون تناسبهم العالي فقط في ولاية راجستهان. و تشكل الوثنية القبيلية مقدارها وافر أيضا في منطقة شمال الشرقية - اروناتشل براديش و ميغهاليه و الزردشيون مقتصرون فقط على مدينة ممباني و معظم يسكنون في منطقة كولابا ومقدارها الضئيل منتشر في مدينة حيدر آباد و برودا و ناسك و أحمد آباد وكولكاته و اليهوديون في مجموعة كبيرة فقط يسكنون في كوتشين و منطقة كونكان.

بل انه حتى المستوى الإقليمي و شبه الإقليمي يشكل الهندوس والمسلمون أكبر تعداد من الديانات الأخرى و يشكل المسلمون أغلبية في

ولاية جمون و كشمير (٦٥،٨٥%) و جزر لاكشديب خاصة في جزر ميني كونـي و اميندفـي (٩٤،٣٧ %) و أكـبر أقليـة دينيـة فـي ١٢ ولايـــة أي أن تعدادهم يأتي بعد الهندوسية مباشرة.

الولايات نسبة	السكان المئوية
أسام	٢٤،٣
بنغال الغربية	٢٠،٤٦
اترابراديش	١٥،٤٨
بيهار	١٣،٤٨
كرناتكا	١٠،٦٣
كجرات	٨،٤٢
مهاراشترا	٨،٤٠
اندهرابراديش	٨،٠٩
راجستهان	٦،٩٠
تري بورا	٦،٦٨
مدهيه براديش	٤،٣٦
هماتشل براديش	١،٤٥

و ثاني أكبر أقلية دينية في خمس ولايات و ست الأراضي الاتحادية بعد المسيحية و السيخية.

الولايات	نسبة السكان المئوية
كيرالا	١٩،٥٠
مني بور	٦١،٦
تامل نادو	٥،١١
هريانه	٤،٠٤
اوريسا	١،٤٩

الأراضي الاتحادية	نسبة السكان المئوية
اندمان	١٠،١٢
دلهي	٦،٤٧
بونديجري	٦،١٨
كوا	٣،٧٦
جندي كره	١،٤٥
دادر و نكر هويلي	١،٠٠

و علاوة على ذلك توجد مجموعات المسلمين المتميزة اجتماعيا وثقافيا باختلافاتها الإقليمية الجلية في لغاتهم و لهجاتهم و عاداتهم و مطبخهم و تركيبهم المهنية و قنونهم و حرفهم في ٢١ منطقة على الأقل من ٥٨ منطقة حسب التصنيف الاجتماعي الثقافي للمناطق في الهند و هي (١)وادي كشمير (٢) المنطقة العالية كيتشاوار - تشينبا (٣) ميوات - دلهي

(٤)روهيل كهند (٥) اوده (٦) بهوجبور (٧) متهيلا - مغده (٨) مساحات راره- بنغال (٩) جزيرة كنكا و كولكاته (١٠) وادي برهمبوترا (١١)كاتشار تري بورا (١٢) ماروار الغربية (١٣) كوتش - كاتياوار (١٤) بروج - أحمد اباد (١٥) مالوا و كهانديش (١٦) مارتاوار (١٧) كرناتكا - دكن (١٨) تلكين - حيدر آباد (١٩) مالابار (٢٠) ميني كو واميندفي (جزر لاكشديب) و (٢١) جزر اندمان و نيكوبار.

هناك اعتقاد شائع بان المسلمين مثل الطبقات الهندوسية و طبقات المنبوذين و الطبقات الملحقة يعيشون في المناطق الريفية النائية عن المدن غير أن النظر إلى توزيع السكان في الهند يؤكد عكس ذلك. حينما يصل تعداد سكان المناطق الريفية إلى ٧٧% من إجمالي تعداد سكان الهند يبلغ تعداد سكان المناطق الحضرية من المسلمين ٧٣% بما يعني أن تعداد سكان المناطق الحضرية من غير المسلمين يبلغ ٢٣% في حين يبلغ تعداد سكان المناطق الحضرية من المسلمين. و هذا من الواضح أن نذكر أنه كثافته ريفية بصورة ضرورية في المناطق التي توجد فيها تركيز المسلمين بصفة كبرى، على سبيل المثال في كشمير (٨٦،٣%) و بنغال (٨٥،٨%) واترابراديش (٧٤،٣%) و كيرالا (٨٢،٦%) و اسام (٩٥،٨%) و بيهار (٨٨،٠%) و جزر لاكشديب (١٠٠%) و فقط في بعض الولايات أينما سكان المسلمين بين ١% و ١٠% و أحد منا يلاحظ أن حشد المسلمين في المناطق الحضرية و لكن نستثنى من ذلك ولاية اندهرابراديش و كجرات وتامل نادو و مهاراشترا حيث يكثر فيها العناصر الريفية.

و مع هذه الخلفية ، فيتضح أن ما يسمى بـ " مشكلة المسلمين" تصبح ذات تشعبات عديدة من حيث المستويات و القطاعات. هناك على

الأقل خمسة مستويات ذات صلة بالموضوع و على المستوى المحلي (القرية/ المدينة) و مستوى المقاطعة و مستوى الولاية و مستوى الإقليم ومستوى البلاد. و على كل حال من هذه المستويات، بسبب الاختلافات في التركيبية الديموغرافية و الخلفيات الاجتماعية السياسية اكتسب الوضع المشكلة شكلا مختلفا و جديرا باختلاف معطياته و ينطبق الشيء ذاته على القطاعات الحيوية العديدة لوضع المسلمين- على سبيل المثال التسكين والتوظيف و الحصول على التعليم و المهارات و التقنية و الحصول على الحقوق الذاتية و الإصلاح الاجتماعي و الحفاظ و الحماية للغة الأردية وتطويرها و الحفاظ على الهوية الثقافية و تأمين الحياة و معيشتهم وممتلكاتهم و المشاركة في السياسة و في عملية ترسيخ الديموقراطية و بناء الدولة على إطلاقها، بذلك يصبح الحديث عن قضية المسلمين باعتبارها قضية خاصة بالمسلمين على وجه القصر و ليست قضية كل الهند.

و إن مشكلة المسلمين مثل مشكلة الهندوس هي مشكلة الهند و هي مشكلة قومية (و ليست مشكلة طائفية أو مشكلة مجتمع) لأن الهندوس والمسلمين يشكلون الطائفتين الوحيدتين اللتين تنتشران في أنحاء البلاد، إقليميا و لغويا و ثقافيا و عرقيا فان مشكلاتهم تعد ذات صلة بجميع مستويات و قطاعات الحياة القومية. و لكنه تجدر الإشارة في هذا السياق إلا أن جزءا من المشكلة يبرز على وجه التحديد لعدم تساوي الطائفتين من حيث العدد. فالاختلاف في النسبة و التناسب هائل للغاية و مشكلة المسلمين اجتماعيا و ثقافيا بل سياسيا بصورة ما ليست ظاهرة راسية بقدر ما هي ظاهرة أفقية فالاختلافات الإقليمية على درجة من الأهمية أكبر من أن يمكن يجاهلها. على سبيل المثال، أن المسلمين ليسوا بأقلية في ولاية كشمير وأنهم

يشكلون الأمية و الأغلبية المستغلة و التي ليست قادرة على مدافعة عن حق متساوية لحجمها. فالنمط الثقافي في لاكشديب و مالابار مختلف من كاتشار و مرشداباد. و المسلمون في الجماعي الريفي في ميرت و بستي، حينما يتملكون المشابهات العامة مع المسلمين الحرفيين في مراد آباد أو حائكين في وارانسي و فلاحي بالغهات في ولاية كيرالا أو أساتذة مدارس كورنول في ولاية اندهرابراديش.

و عند الحديث عن صلة الإسلام فيجب على أن نتذكر أنه في الأساس رباط ديني روحي بطبيعية، مثل جميع الروابط الدينية. هذه تشغل أساسا على مستويات العقائد و الوجدان و العالم الإسلامي أيضا واسع الانتشار جغرافيا و مكسرة بالهويات اللغوية و الثقافية و العرقية الخاصة ممتدا بثلاث قارات و نحو ٤٦ ولاية لمنح تأثير الاتحاد السياسي و الثقافي والاجتماعي الخاص، مثل العالم المسيحي، هذا عالم مختلف تماما، ممتد من البانيا و تيمبوكتو خلال بولخا و بخارى عبر شبه قارتنا إلى الأمكنة الغربية كبيناغ في مليشيا و نادي في فجي. الإسلام كدين يهتم أساسا بأمور العقائد و الإيمان و نواح يعينها للحياة الاجتماعية و الدين برغم أهمية بطريقته الخاصة، لا يزود المكون الأساسي للتماسك الاجتماعي السياسي و إذا كان الدين هو أحد العوامل الهامة للهوية فإنه ليس العامل الوحيد، كما أنه ليس العامل الأكثر حسما في كافة ظروف الحياة المدنية و السياسية.

و المسلمون الهنود يبلغ عددهم أكثر من مائة مليون نسمة و هو ثاني اكبر تعداد مسلمين في العالم (بعد إندونيسيا)، يمثل درجة السكان أكبر من ١٦٠ من بين ١٧٧ ولاية معمورة للعالم و أكبر من سكان مسلمي باكستان وبنغلاديش و هو تقريبا ضعف سكان العرب في ١١ دولة لآسيا

الغربية. وقد مثل المسلمون دورا تاريخيا بارزا في تشكيل مجتمع العصور الوسطى في الهند و ثقافتها المركبة و عمارتها و خطها و رسومها المنمنمة و حرفتها و حياكتها و موسيقها و شعرها و أدبها الصوفي و فنونها وتصميماتها الخياطية و يقرب من سبع مائة عام تشكلت الصفوة السياسية - من ملوك ووزراء و حكام و إداريين و الطبقة العليا من الطبقة الإقطاعية - من بين المسلمين من الأفغان و الباتان و الأتراك و الإيرانيين و الطورانيين والمغول. مما يجعل من الإشارة إلى المسلمين كأقلية دينية فقط تبسيطا فجا لمشكلة معقدة، انهم ليسوا أقلية إلا من حيث العدد. بخلاف ذلك فان المسلمين من حيث عددهم بغض النظر عن نسبة إلى عدد الهندوس و من حيث تراثهم الاجتماعي و الثقافي و تأثير على السياسي يشكلون ثاني أكثر القطاعات هيمنة من الشعب الهندي و بأساليب عديدة تظهر ميزات وعي الأغلبية و ثقتها و حزمها.

ما افضل الملاحظة الملائمة هي عامل عال و تفريق الطبقة خلال كل مجتمع - و أيضا العوامل الدينية و اللغوية و الإقليمية و المسلمون مثل الهندوس و الأجزاء الدينية الأخرى منقسمون إلى الدرجات و المهن والطبقات- هذا جدير بالذكر أنه مثل عكس قسم ورنا من الطبقة للهندوس، جوانب نظام الطبقات التشكيل الاجتماعي للزواج اللحمي و النسل أو الدرجة أيضا يوجد بين المسلمين لأهداف المطابقة الاجتماعية، جعل التميز بين الأشراف و الأجلف و الفلاح بينهم " السيد" و "شيخ" و "مغل" و "باتان" و المجموعات المهنية الأخرى مثل الحائكين و الجزار و النجار و الزيات والحلاق و الغسال و عمال الجلد و غيرهم، لذلك لأجل التأكيد البين على "أخوة المؤمن" (المؤمنين) في الإسلام - و تأكيد النبي صلى الله عليه و سلم

على دحض الجيل و اللون و القبيلة كأساس شرعي للتفريق بين رجل ورجل و تشكيلات الطبقات الصارمة بين المسلمين و لكن و أسفاه، العقيدة الإسلامية للمساواة بين أعضاء الأخوة الإسلامية فقط تشاهد خلال أوقات الصلاة في المسجد و الحج في مكة المكرمة و المدينة المنورة إلا تفريق الطبقة منتشر بين الأمير و الفقير و أصحاب الأراضي و أصحاب بدون الأراضي و الصفوة و الشعب بين المسلمين مثل المجتمعات الدينية الأخرى.

و لذلك، فجعلا جوانب الإقليم و الدرجة بعين الاعتبار - هذا يبدو أن المشاكل الرئيسية لكافة المسلمين في كل منطقة و ولاية ليست مختلفة كل الاختلاف من الآخرين و المحرومين المطرودين مثل المنبوذين عمليا في كل مكان و الطبقات المحرومة من الأراضي في جميع المناطق و الأقاليم والبراهمايين المسلوبين في جيوب الهند الجنوبية.

وفي وضع المنافسة لأن قلة الوظائف و الفرص التعليمية والمجموعات المهنية لمجتمع لأغلبية ظاهرا تمتلك على جانب على الأخر خاصة على مجتمع مثل المسلمين الذين لا يتملكون الأموال و لا الرعاية السياسية و لا المواهب العليا و المهارات الرفيعة.

و لا مجال للريب، إن فعلا كل مادة أساسية لطبقات المؤشرات الاقتصادية - الاجتماعية للتطورات مثل دخل كل شخص و تعليم و استهلاك الغذاء و شروط المعيشة و الوظيفة و الفرص و التسهيلات الطبية و اللياقات المدنية و غيرها - حجم المسلمين على الأقل درجة النسل، حتى الطبقات الوسطى و الطبقات العليا للمجتمع الإسلامي تمتلك أقل من التناسب في المعاهد للتعليم العالي و الوظائف و وضع الأهمية القومية.

و عامل للأهمية الوجدانية و الاجتماعية الضخمة يؤثر على القرارات السياسية للمسلمين الذين يتكلمون اللغة الأردية هو مستقبل لغتهم حينما سكان المسلمين في الهند نحو ١٠٠ مليون، و الذين يتكلمون اللغة الأردية كلغة أم هم يشكلون فقط ٣٥،٣ مليونا و لذلك إذا يعتبر جميع الأشخاص المتكلمين اللغة الأردية هم فقط المسلمون فيتضح لنا أن اللغة الأردية ليست لغة أم ٢/٣ مسلمي الهند. و مع ذلك أن اللغة الأردية كلغة الثقافة المركبة و الشعر الفاتن و الأدب الديني التي تحث رباط التعاطف حتى بين المسلمين الذين يتكلمون اللغة الأردية كلغة أم.

كثير من الهنود - الهندوس و المسلمين و السيخين معنيون بأن اللغة الأردية إحدى الضحية الثقافية الكبرى لتقسيم البلاد. قد زال هذا في حياة جيل رأى بعينه تطور اللغة الأردية كمركبة رائعة للثقافة المركبة و الأفكار الفلسفية و الشعر التخيلي الغير العادي و الأدب السياسي القوي و النزعات الدينية كوسيلة تحقيق للتعليم العالي عمليا في جميع أنواع التعليم و كلغة قانون و إدارة.

و لكن في الحقيقة أن عددا كبيرا من المسلمين في دلهي و ولاية اترابراديش و مدهيه براديش و راجستهان و بيهار و هريانه و كشمير واندهرابراديش و ممبائي يتكلمون اللغة الأردية كلغتهم الأم. و في ولاية حيدر آباد السابقة هي كانت لغة رسمية نحو قرن و ظلت وسيلة التعليم إلى العقود المتعددة في مختلف أجزاء البلاد، وفي ولاية بنجاب (من بينها هريانه) و في اترا براديش و بيهار هي كانت تستخدم على نحو واسع في المراكز الحضرية للقرنين و من الأقل منذ وسط القرن الثامن عشر خلال

نضال التحرير الوطني إن الصحافة الأردية و الكتيبات الأردية قد لعبت دورا هاما بارزا في بناء الرائي العام و الوطن.

صورة المسلمين الذاتية في الهند:

يهتم إدراك الطبيعة الخاصة لنفسية المسلمين في الهند فيجب على المرء أن يتفهم جوانب بعينها لنفسية نخبة المسلمين، فقط أصبحت هذه النخبة التي تشكل على شرفاء قصباتي و العلماء و المدرسين و رجال الأعمال و أصحاب الأراضي و الموظفين المدنيين في القوة و الشرطة وغيرهم لبناء القوة المهيمنة لبناء الرأي و قيادة المجتمع. و أي دراسة سكولية تكشف أن جميع العناصر المختلفة للمجتمع الهندي معتمدا على الدين و الثقافة و اللغة و غيرهما - فقط جزأين يكشفان وعيا موضوعيا تفوقهما الجماعي و في الحقيقة مماثل عواطف "هيربن فولك" المسمى بـ "الهند - الآريين و الهند - الإسلامي" و ينغمس الهندوس باعتبارهم خلفاء الهنود الآريين الأصليين من ناحية و نخبة المسلمين " الأشراف" من الناحية الأخرى في انطلاقات خيالية لإثبات الذات، تجعلهم يقامون التغييرات الهيكلية التي تحتوي و لي التوحيد الكامل للدولة الهندية و وحدتها الوطنية و يستعرض المسلمون من جانبهم شعورهم المذهبي القوي و هكذا أصبحت الطائفة و المذهب اللذان هما بمثابة الشكلين التقليديين للتلاحم في الوقت الحاضر أكبر عائق إمام العملية الديموقراطية الجديدة للتغير الاجتماعي المرتكزة على المساواة و شعور المسلمين بالتفوق المتولد من ذاكرة يصعب محوها تحتفظ ٧٠٠ عام من السيادة و الهيمنة الإسلامية في الوادي الهندي - الغانغي و في أجزاء عديدة من الديكان يقابله شعور الهندوس بالهيمنة المرتكزة على آلاف الأعوام من تفوقهم الشائري الذي

ازداد رسوخا و ثباتا بارتفاع مستوى تعليمهم و قوتهم السياسية و امتلاكهم للأراضي.

و من منطلق صورتهم الذاتية، اعتبر المسلمون أنفسهم دوما القطاع الوحيد الأكبر و الأكثر تماسكا و اندماجا في الكيان الهندي و شعورهم هذا استند إلى الشعور بتضامن الأخوية الإسلامية و تجانسهم القائم على الدين. إذا تعتبر الطبقات الملحقة و الطبقات القبيلية كسطحي و حتى العناصر اللامعترفة " لودنشرمادهارما" ثم تناسبها و عددها ليست أكثر من سكان المسلمين في أية حال هذا صحيح إن المسلمين لا يشعرون أنفسهم كأقلية بائسة و ضعيفة لكنهم من الأقل أنهم جزء كبير للدولة الهندية.

و في عموم الأمر، اعتبرت نخبة المسلمين نفسها أيضا النموذج الأروع للثقافة في الهند. و حبوا دائما أزياءهم الخياطية الثرية و فنونهم الطبخية و فنونهم المختلفة المتنوعة الشهية و أسلوب معيشتهم الانبساطية والمبذرة و حسن ضيافتهم و سلوكهم الحسنة و لطفهم و آدابهم المعاشرة والتعبير الاجتماعي للأسلوب المهذب و ليس أقل من رعايتهم و مساهماتهم في الموسيقى القديمة و الرسوم المنمنمة و الخطوط و الحياكة و الحرفة والعمارة كصفة رسمية لتفوقهم ثقافيا و اجتماعيا.

و أنهم أيضا افتخروا أنفسهم بالسذاجة المذهبية و مباشرة عقائدهم التي تعتقهم، من الأقل وطنيا، من تشكيل أقسام الطبقات و القبيلة و الأساطير و القداسة و الرسوم الموجودة في أنماطهم الاعتقادية و العقيدة الإسلامية، في تشكيلاته التوحيدية الواضحة و الأوامر البينة التي تحتوي على كافة الحياة الاجتماعية.

عملية بناء الدولة الفيدرالية:

بدأت الهند عملية عظيمة قوية لبناء دولة فيدرالية و الهند من حيث الاختلافات الاجتماعية و الثقافية، أكبر من بلد و أضخم من أمة و أكثر من كونها مجرد دولة فهي حضارة واضحة المعالم بكل أوجه اختلافها و تنوعها و قد منحتها القرون التي عاشتها قطاعاتها العديدة في تعايش سلمي صفة الوحدة في التنوع هذا هو السياق الذي يجب أن يطلق على الهند في إطاره دولة فيدرالية و مثل هذه الدولة الفيدرالية الديموقراطية هي التي تبرز فيها هوية المسلمين الجديدة.

أن أقلية بهذه الضخامة من حيث العدد و هذا التأثير الثقافي بتاريخها المركب و ما يكمن خلفه من تقاليد مركبة مثل ما للمسلمين في الهند و لا يمكن أن تكون إلا مبدعة و مهيمنة فقط لو أن زعماءها يلعبون دورا إيجابيا و بناء و عندئذ في ديموقراطية علمانية تمر هي ذاتها لعملية تحديث و من المحتم أن تتبدل الفئات العاملة و يصاحب ذلك وجود ثقافة سياسة جديدة تحيل إلى الخلفية دور المجموعات الطائفية و تستبدلها بمجموعات توجهها المصالح و يتحم أن تكون هذه المجموعات بطبيعة الحال متعددة الطوائف في تركيبها و جماعية في مطالبها و مركبة في تطلعاتها و ذات سياسات موجهة نحو القضايا العامة.

و في الهند الجديدة يواجه المسلمون وضعا جديدا عقايديا و مختلفا على نحو جذري اجتماعيا و هنا جدير بالذكر إلى كلمات زعيم مسلم بارز عظيم رئيس جمهورية الهند السابق الدكتور ذاكر حسين التي قالها و هو يحسم أمر التحدي السياسي الأساسي الذي يواجه مجتمع المسلمين حيث قال- إن المسلمين كانوا في الماضي أما حاكمين أو محكومين أما اليوم في

الهند فإنهم يشاركون في حكم الهند بوصفهم مشاركين في السيادة الوطنية ومن الممكن أن يقول كنوع من القياس أن المشكلة التي يواجهها المسلمون الهنود على المستوى الوطني تطابق المشكلة الأساسية للمعيشة الدولية ذاتها و هي مشكلة التعايش السلمي على مستوى التبادلية في المنافع مع القطاعات و الشرائع الأخرى التي يوجد بينها أساسيات الاهتمامات المشتركة مثل الديموقراطية و العلمانية و السعي إلى تحقيق العدالة الاجتماعية والاقتصادية.

تمييز الاختلافات الاجتماعية و الثقافية كمجتمع المسلمين في أنحاء الهند بأكملها تجعل من المحتم أن يكون إدراك حقيقة المسلمين في الهند كظاهرة مختلفة العناصر و رابطة الدين لا توجد سوى على المستوى الوجداني و الروحي و ليس في نواحي اجتماعية سياسية محددة و ليس أول على ذلك من تلك الاختلافات المحلية الواسعة في العادات الاجتماعية والقوات الذاتية و الأساطير التاريخية و رموزها فيما بين مجتمعات المسلمين " استخدام صيغة الجمع هنا معتمد" في شبه القارة الهندية الواسعة.

إن هوية المسلمين الجديدة في كل إقليم و كل منطقة نتحدث لغة واحدة و كل مجموعة مهنية و كل طبقة من طبقات المجتمع تبرز استجابة لعملية التحول الاجتماعي الاقتصادي الضخمة التي تتغير وجوه أرض الهند القديمة العريقة إلى دولة جديدة. و العملية الرابطة للتحديث - التصنيع والتحضير و انتشار التعليم العلمي و العلماني و تطوير الثقافة المحلية ومكننة الزراعة و تقنيات الإدارة الجديدة للتجارة و توسيع الفرص التوظيفية في المجالات للنشاطات و غيرها أرست تأسيس الهند الجديدة.

و إلى جانب ذلك، فإن الانتشار المتواصل لطبيعة السياسيات الديموقراطية بجميع سماتها الإيجابية السلبية قد جلب مجتمع ما بعد النظام الإقطاعي الذي يجاهد من أجل محور جديد للعلاقات الإنسانية يقوم على حق البالغ في الانتخاب و المواطنة المشتركة و القوانين المتساوية و التفوق البرلماني و حرية الدين و اللغة و الجنس و المهنة و العقيدة.

مسلم عادي اليوم مختلف كليا من أسلاف قبل الاستقلال في المناطق الريفية و الحضرية كليهما و هو أيضا يظهر بالأعلام المطبوعة و الأعلام الإلكترونية كباقي المواطنين و هو متأثر على سواء بالمنظمة الحرفية كذلك.

ومسلم يشارك أيضا في عملية التعبئة السياسية و الاشتراك إلى جميع الأحزاب السياسية و مغطيا كافة مجال الثقافة السياسية في الهند كاملا من اليمين إلى المراكز إلى اليسار و قد مثل المسلمون دورا هاما في كل الأحزاب القومية الهامة و ليس صحيحا من الناحية السياسية أن معظم المسلمين قد انحازوا إلى أي حزب أو جماعة إسلامية خاصة بهم.

و كما أن أغلبية الناخبين المسلمين الكبيرة تكشف عن قدر كبير من الاستقلال في الحكم و حس بالتميز العلماني و الدراسات الانتخابية عبر السنوات قد أثبتت هذه الحقيقة بشكل وضوح.

وعمليا في جميع أو جميع أوجه الحياة في الهند و تولى بعض من المسلمين مناصب كبيرة في الزمن المعاصرة فكان بينهم العلماء و الفنانون و المعماريون و المغنيون و كتاب المسرح و الممثلون و الصحفيون والناشرون و ماهرو التعليم و الأكاديميون و الفقهاء و المحاميون والمدراء

و الفنانون في التقنية و الأطباء و المهندسون و الموظفون المدنيون والدبلوماسيون و موظفو الدفاع و أعضاء البرلمان و أعضاء مجلس التشريعي و الوزراء و كبراء الوزراء و رؤساء مجلس البرلمان والسياسيون العاملون في مجال المجتمع و القضاة و قاضي القضاة و نواب رئيس الجمهورية و رؤساء الجمهورية.

و لكن مثل جميع القطاعات الأخرى - الدينية أو اللغوية أو الإقليمية أن المسلمين أيضا يمرون في حياتهم الجماعية عن طريق مرحلة انتقالية في الذي بعض افتراضات حياتهم الماضية تواجه التحدي و التعديل لتشكيل صور أجدد للهوية.

و إن البحث عن هوية موحدة للمسلمين في جميع أنحاء الهند كوحدة مستقلة إنما هو كالبحث عن سراب أو حلم لا سبيل إلى تحقيقه و هو عمل يتسم في أحسن حالاته بالغموض أن لم يكن بغير ذات الجدوى تماما كما هو الحال بالنسبة للهندوس و أنهم أيضا مختلفون و بنفس القدر على مستوى القارة بحيث يصعب اختزالهم في نمط واحد و عام.

و في سياق بناء الدولة العلمانية الفيدرالية، يتعين على المسلمين أن يلعبوا دورهم المشروع في إرساء أسس الدولة العلمانية الديموقراطية الجديدة في الهند. في قيامهم بهذا الدور يبرز وجهان من بين أعمال أخرى كثيرة على درجة كبيرة من الأهمية و هما:

(١) التعبئة الجماهيرية و زيادة المشاركة للمسلمين كمواطنين مثل باقي مواطني الهند في المجالات المختلفة المتنوعة لبناء الدولة الفيدرالية

وسواء الاقتصادية أو الاجتماعية و الثقافية و السياسية و لكن الأهم من ذلك المشاركة في السياسات ذات الإجماع الوطني.

(٢) و بناء مجموعات ضغط لمصالح الأمة و تحقيق الأهداف القضايا الاجتماعية الثقافية و في الغالب على مستوى الولاية و المستوى القومي. و لكن مرة أخرى كاختلافات طائفية شاملة فقط و لكن كجماعات ذات أثر مشترك بما فيها الهنود كمواطنين بدون جيل و اعتقاد و كأبناء البلاد الذين ينتمون إلى الأخوية الهندية العامة ذات الأديان المتعددة.

هناك حاجة ملحة إلى تطوير هوية إسلامية جديدة في الهند المعاصرة تتناسب مع التعاليم الإنسانية و التراث الإسلامي و التراث العقلاني المؤثر كدين العقل و بعض من المفسرين الليبراليين البارزين للإسلام أكدوا ذلك و من بينهم مولانا أبو الكلام أزاد. و إنه من الممكن أن يكون استجابة المسلمين إبداعية و ابتداعية لمواجهة تحديات بناء هند جديدة حول القيم الديموقراطية و الدولة العلمانية و الفيدرالية و العدل الاجتماعي في عالم تأكيدا على الأخوية الإنسانية المشتركة و التواقف العالمي.

حركة التصنيف
في التراث العربي بعد سقوط بغداد
"رؤية عامة"

بقلم: د/ عبد الإله نبهان

لعله من المشروع أن نبدأ هذا الموضوع بالتساؤل : و لماذا حركة التصنيف بعد سقوط بغداد حصرا؟ و هل اختلفت حركة التصنيف اتساعا وشمولا بعد سقوط بغداد عما كانت عليه قبل سقوطها؟ و إذا كان الأمر لم يختلف فلم هذا الموضوع بالذات؟ إن تأمل الأخبار المدونة في سقوط بغداد و إحراق مكتباتها و تدمير معالمها ، وفي كتب مكتباتها في دجلة على نحو وحشي بعيد عن أي مفهوم حضاري، فخيل إلى الناظر أن العلم ا ندرس منذ ذلك لا ندرس أسبابه، و أنه لن نقوم له قائمة، و أن على الأمة التي أتلف تراثها المدون أن تعود إلى الوراء لنبدأ من جديد أن استطاعت البدء.

و إذا كنا لا نشك ولا أحد يشك في أية طائفة من التراث المدون قد أتلفت نسخه الوحيدة في خراب بغداد، إلا أننا نعلم أن مراكز العلم في العالم العربي الإسلامي كانت قد انتشرت شرقا و غربا، و أن مراكز علمية كبيرة

و أساسية كانت قد تأسست منذ أيام الأيوبيين وتابعت نموها أيام المماليك في بلاد الشام ومصر و غيرهما، كما أن نكبة بغداد لم تكن الإبداع الوحيد الذي قدمه التتر، إنهم قدموا إبداعات أخرى في كل مراكز العلم التي داستها سنابك خيولهم، كما أن الأسبان لم يكونوا مقصرون عن التتر في هذا الميدان، فإنهم أحرقوا في غرناطة وحدها في أخر القرن التاسع الهجري مكتبة كان فيها ثمانون ألف مجلد على أقل تقدير، و طافوا في المدينة وأخذوا ما في أيدي الناس من الكتب و أحرقوها.

نعود إلى القول : بأن هذه الأخبار و ما جرى مجراها تحفز على التساؤل عن حركة التصنيف ما آل إليه أمرها بعد كل هذه النكبات؟ بل إننا فعلا سمعنا شكوى السيوطي من قلة عدد الكتب بين أيدي المتأخرين، قال :"وقد ذهب جل الكتب في الفتنة الكائنة بين التتر وغيرهم، بحيث أن الكتب الموجودة الآن في اللغة من تصانيف المتقدمين و المتأخرين لا تجئ حمل جمل واحد" و هذا إن دل على شئ فإنه يدل على إحساس العلماء بفداحة الرزء بضياع جانب كبير من التراث العربي الذي عرفنا أسماء بعض من أثاره مما بقي لنا من الفهارس و كتب البرامج....

إن رد الفعل العسكري على هجمة التتر على بغداد كان سريعا وحاسما، إذ لم يكد يمضي عامان على سقوط بغداد (١٧ كانون ثاني ١٢٥٨م) حتى حاقت الهزيمة الحاسمة بجحافل المغول في الثالث من أيلول ١٢٦٠م في عين جالوت. و كان الرد العلمي الثقافي مستجرا زمنيا، فلم يتوقف أو يتمهل أو يتأخر، ففي الوقت الذي كانت فيه بغداد تتهاوى، وحضارتها تتبدد، و مكتباتها تلتهما النيران، كان العلماء في دمشق والقاهرة و حلب و الأندلس و القيروان ..... يتابعون دروسهم في تلك المدارس

الكثيرة، وفي رحاب مساجدهم الكبيرة و الصغيرة، و حول سواريها كان التلاميذ يتحلقون حول أساتذتهم يقرؤون العلوم. و يعقدون مجالس التحديث و الإملاء، و يقرؤون كتب السيرة و أخبار التاريخ، و قد استقر عندهم أن الجهاد ليس فقط في ساحات القتال و خوض المعارك، بل إنه أيضا في حفظ تراث هذه الأمة و نقله إلى الأجيال، و نحن لا نزعم هذا زعما و ننسيه إليهم و نحملهم ما يطيقون و ما لا يطيقون، بل إن تاج الدين السبكي (ت ٧٧١هـ) صرح بذلك على نحو لا لبس فيه إذ قال " و قد أمرنا الله بالجهاد في نصرة دينه ، إلا أنه سلاح العالم علمه و لسانه، كما أن صلاح الملك سيفه و سنانه، فكما لا يجوز للملوك إغماد أسلحتهم عن الملحدين و المشركين، كذلك لا يجوز للعلماء إغماد ألسنتهم عن الزائفين المبتدعين " و لا شك أن نص السبكي هذا يعين فيما يعنيه النضال العلمي خطابة و تصنيفا ... وفعلا فقد أقبل العلماء على التأليف إقبالا عجيبا منقطع النظير، حتى إننا اليوم لنقف موقف الدهش و العجب أمام فهارس مؤلفاتهم، بل إنه أحدنا ليسائل نفسه كيف تسنى لأحدهم في عمر محدود أن يؤلف مثل تلك الكثرة الكاثرة من المؤلفات الضخمة، بل إنني عندما أنظر إلى كتب السيوطي و ابن منظور والصلاح الصفدي لأسال نفسي: لا كيف صنفوها، بل كيف تسنى لهم نسخها و هي على ما هي عليه من الضخامة و الاتساع؟ و من هنا وجدتني أمام العنوان الضخم لهذا البحث مضطرا إلى النظر في بواعث التأليف و اتجاهاته و موضوعاته الكبرى، عوضا من أنه أسترسل في تعداد المؤلفات و أسماء المؤلفين مما اشتملت عليه كتب الفهارس.

وقد يلوح بادئ ذي بدء، في ضوء تصريح السبكي السابق، أن سبب الإقبال على التصنيف سبب ديني بحت، و نحن و إن كنا لا ننكر هذا السبب

الديني إلا أننا نضيف إليه أسبابا أخر منها الذاتي و منها الموضوعي، فمن أبرز الأسباب الذاتية حرص المؤلفين على رفعة المكانة العلمية في عصرهم، و تأكيد وجودهم العلمي، و نصرة مذاهبهم و الحرص كذلك على خلود الذكر بعد موتهم، أما الأسباب الموضوعية فكثيرة، منها ما أشار إليه السيوطي من فقدان الكتب بسبب الكوارث، و حاجة أهل العلم إليها ، و منها طائفة من الكتب القديمة الكبيرة قد قلت نسخها بين أيدي الناس، و هؤلاء لم يعودوا بحاجة إلى المطولات و الأسانيد، فاتجه نفر من العلماء إلى اختصار تلك المطولات و تهذيبها و وضعها بين أيدي طلبة العلم، و من هنا كان معظم ما خلفه ابن منظور (ت ٧١١هـ) إنما هو مختصرات للمطولات كاختصاره للأغاني و تهذيبه لتاريخ ابن عساكر و لسرور النفس للتيفاشي واختصاره لغيرها، كما نذكر في هذا الصدد كتاب الحيوان الكبير الذي هو تهذيب لحيوان الجاحظ و مؤلفه كمال الدين الدميري (ت ٨٠٨هـ)، كما نذكر تجريد الأغاني لابن واصل الحموي (ت ٦٩٧هـ) و تذكرة داود الانطاكي (ت ١٠٠٨هـ) في الطب و هي ملخصة عن قانون ابن سينا وغيره ... إلا أن هذا الاتجاه إلى اختصار و التهذيب لم يكن هو الوحيد، فإذا كانت الحاجة إلى المختصرات ملحة في مجال، فإنه الحاجة إلى الشروح المطولة ذات السمة الموسوعية كانت قائمة في مجالات أخر، و خاصة في مجالات التعليم، فقد كانت الحاجة هنا مزدوجة، فمجالس التعليم تطلبت المختصرات و استدعت تأليف المنون الموجزة جدا ليسهل حفظها، و كانت هذه المتون بحاجة إلى الشروح، توضح عباراتها، و تجلو مقاصدها ، وتبسط القول يا مسائل الخلاف فيها، و تطب في القول لاستيعاب المسائل النادرة التي لا تفي بها المختصرات ، و من هنا وجدنا أن مكتبة كاملة تتكون حول متن من المتون، فمن الألفية لا بد مالك النحوي (ت ٦٧٢هـ)

كان محورا لنشاط نحوي كبير قام به عدد من الشراح، و قل مثل ذلك عن كتابه التسهيل، أما مفصل الزمخشري فإن الشروح التي ألفت عليه بعد سنة ٦٥٦هـ تجاوز العشرين شرحا، عدا من نظمه نظما و أفرد شواهده بالتأليف، و يصدق هذا أيضا على متون الفقه و متون الأصول في مختلف المذاهب الفقهية ... أضف إلى ما سبق ذلك الاتجاه إلى التاريخ و إلى التأليف فيه على نحو غزير جدا، وزد على ذلك الاتجاه إلى تأليف الموسوعات الكبيرة الشاملة في الأدب و المعارف الهامة، و المعجمات الكبيرة التي تستقصي كل كبيرة و صغيرة، و تجمع ما تفرق في سائر ما سبقها، كما برز اتجاه إلى التأليف في الفقه المقارن و الفقه الحديثي، و إلى جمع كتب الحديث السابقة في كتب كبيرة شاملة كجامع المسانيد و جامع الأصول و الجامع الكبير... أما كتب التفسير فحدث و لا حرج، إذ ستجد أمامك قبنا كبيرا يشتمل على التفاسير المبسوطة و حواشيها و مختصراتها،خذ على سبيل المثال ما وضع من الحواشي على تفسير البيضاوي و على كشاف الزمخشري...

إن ما قدمناه حتى الآن يدل على أن حركة التصنيف بعد سقوط بغداد نشطت نشاطا ملحوظا، و سارت بخطي لاهثة محمومة لتفويض ما ذهب من جهة، و لحفظ تراث الأمة العربية في سبيل المحافظة على شخصيتها الحضارية أمام عوامل القهر و الإفناء من جهة أخرى ، كما كانت هذه الحركة على نحو ما متويضا عن فقدان السلطتين السياسية والعسكرية اللتين آلتا إلى غير العرب منذ زمن بعيد.

و من الصعب إن لم يكن مستحيلا أن نتتبع حركة التصنيف في جزئياتها و شتى فروعها في بحث محدود، مع أن مادتها العلمية ناجزة،

و فهارسها عتيدة جاهزة ، بل إن بعضـا مـن إنجازاتـها أ حييت و هـي الآن بين أيدينا مصـادر لا يمكن الاستغناء عنها، و لا يقوم غيرها مقامـها لسـعتها وشمولها و إحاطتها، بل إن استعراض آثار مؤلف واحـد اسـتعراضـا اسـميا يستغرق صفحـات عدة، لذلك رأيت أن أقتصـر علـى بعـض إذ لا يمكـن الإحاطة بكـل، و رأيت أن يكـون الكـلام فـي حركـة التصنيـف ذات الطـابع الموسوعي أولا لأن الكلام فيها محدود.

و مـن أبـرز موسـوعات ذلـك العصـر نذكـر أولا " منـاهج الفكـر ومناهج العبر" لجمـال الديـن محمـد ابـن إبراهيـم المعـروف بـالوطواط (ت ٧١٨هـ) و هـو موسـوعة فـي أربعـة أجـزاء، جعـل أولـها للسـماء و الفلـك والثاني للأرض و ما عليها و جغرافيتها، و خصص الثالث للحيوان والرابع للنبات.

أما الموسوعة الثانية التي سنذكرها فهي كتـاب " نهايـة الأرب فـي فنون الأدب" لأبي العباس شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢هـ)، و قد جاءت هذه الموسوعة في نيف و ثلاثين مجلـدا، بيـن أيدينـا منـها اليـوم ثمانيـة و عشـرون مجلـدا مطبوعـا محققـا يمكننـا أن نتحـدث عنـها حديـث العارف. و أهميتها العلمية لا في ذاتها فقط و لكن في معرفة المصـادر التـي اعتمدها النويري في تصنيف موسوعته."

اتصل النويري بالسلطان الناصر، و علت مرتبته لديه، إلى أن ولاه نظر الجيش بطرابلس الغرب، ثم فسدت العلاقات بالوشايات، ممـا أدى إلـى قطع صلته بـالديوان السـلطاني، و اتجـه إلـى العمـل بنسـخ الكتـب و بيعـها، وأتاحت له هذه المهنة، بالإضافة إلى ما اكتسبه في ثقافته الأساسـية و عملـه الديواني أن يقلب صفحات الأسفار و يعرف خصائص الكتب، و يحيط خبرا

بالمكتبة العربية، مما أوحى له بتأليف عمله الموسوعي الضخم، بعد أن ترك وظيفته " و رغب في صناعة الآداب، و تعلق بأهدابها ، و انتظم في سلك أربابها، فامتطى جواد المطالعة و ركض في ميدان المراجعة، و اثر أن يجرد منها كتابا يستأنس به، و يرجع إليه، و يعول فيما يعرض له من المهمات عليه، فاستقر الرأي على خمسة فنون..." و كان الفن الأول في السماء و الآثار العلوية و الأرضي و المعالم السفلية، و الفن الثاني في الإنسان و ما يتعلق به، و الفن الثالث في الحيوان الصامت، و الفن الرابع في النبات، و الفن الخامس في التاريخ، و اشتمل كل فن من الفنون الخمسة هذه على خمسة أقسام و كانت هذه الموسوعة خلاصة مئات المراجع التي رجع إليها النويري و نخلها و لخصها، و نذكر منها على سبيل المثال كتاب نزهة المشتاق و اختراق الافاق للادريسي، و مناهج الفكر و مناهج العبر للوطواط و إحياء علوم الدين للإمام الغزالي و الملل و النحلل للشهرستاني ومجمع الأمثال للميداني و فقه اللغة للثعالبي، و عشب الطب القديم و الأدوية و الأعشاب و سائر دواوين الشعراء التي اختار منها ما يناسب موضوعاته، و يناسب حاجة الناس إليه، فقد ذكر أنه لم يورد إلا ما غلب على ظنه أن النفوس تميل إليه، أو أن الخواطر تشتمل عليه، و لو علم أن فيه خطأ لقبض بنانه و غض طرفه. و من جدير بالذكر أن الفن الخامس و هو التاريخ استغرق ثلث هذه الموسوعة و بلغ اثنى عشر مجلدا كبيرا، بدأ فيه المؤلف من بداية الخلفية - كما تصورها الكتب الدينية - جريا على عادة القدامي من المؤرخين، ثم ساق تاريخ الأنبياء و ذكر أممهم، ثم اتسع في تاريخ العرب والإسلام حتى عصره مارا بتاريخ شتى الدول التي نشأت في ظلال دولة الخلافة و على حواشيها منتهيا بتاريخ سلطان مصر انذك و هو أبو الفتح محمد بن السلطان الشهيد الملك المنصور أبي المظفر كلاوون الصالحي.

ولم يؤلف النويري غير هذا الكتاب ، و كفاه. لقد كان كتابه موسوعة لعصره و موسوعة للأدب و فنونه - بالمعنى العام للأدب - و موسوعة للثقافة العربية حتى يومنا هذا.

أما الموسوعة الثالثة التي سنذكرها فهي كتاب " مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" لابد فضل الله العمري أبي العباس شهاب الدين أحمد بن يحيى، و هو من مواليد دمشق عام ٧٠٠هـ و فيها تلقى علومه و في القاهرة و الإسكندرية و الحجاز و تولى القضاء في القاهرة و توفي بدمشق عام ٧٤٩هـ. عرف بقوة الذاكرة و غزارة المحفوظ، و كانت له معرفة دقيقة بتاريخ المغول والهند و الترك، و بجغرافية الأقاليم... و كانت موسوعته شاملة ذلك كله: الأدب و التاريخ و الجغرافية و التاريخ الطبيعي مما استغرق أكثر من عشرين مجلدا، و قسمها إلى قسمين الأول في الأرض وما يلحقها، و الثاني في سكان الأرض. و أورد في كتابه ما جمعه من معلومات تاريخية جغرافية و ما يتعلق بالمسالك و الممالك و الرياح و عجائب البر والبحر، و تحدث عن أمهات البلاد، و اتسع في الحديث عن مصر و الشام والحجاز، و ترجم للأطباء و العلماء و الفقهاء و أعلام السياسة و الإدارة ودقق في تواريخ المغول و الهنود و الأتراك و الأكراد فضلا عن الأمم الأخرى.

و مما يؤسف له أن هذه الموسوعة التي شهد بقيمتها و نفاستها كل من رجع إليها، لا تزال مخطوطة، لم يطبع منها حسبما أعلم إلا قطعة صغيرة. و منها نسخة تامة مصورة في مصر، كان شيخ العروبة أحمد زكي باشا و جمع شتاتها من مكتبات العالم، و وضع مصورتها بين أيدي الباحثين في دار الكتب المصرية.

أما الموسوعة الأخيرة التي سنقف عليها فهي كتاب " صبح الأعشى في صناعة الإنشاء" للقلقشندي أحمد بن علي الذي ولد في القاهرة عام ٧٥٦هـ و برع في الفقه و الأدب، و كتب في الإنشاء و ناب في الحكم وتوفي عام ٨٢١هـ، و من أهم مصنفاته عناية المذكور، و من بواعث تأليفه بالإضافة إلى ما كنا ذكرناه هو عمله في ديوان الإنشاء، و أنه لمس ما تتطلبه صنعة الكتابة من ثقافة موسوعية شاملة، و هي ثقافة واسعة و معقدة، استغرق الحديث عن عناصرها بعض المجلد الأول من صبح الأعشى و كل المجلد الثاني و بعض الثالث. و تنقسم هذه الثقافة إلى قسمين كبيرين هما:

(١) ما يحتاج إليه من الأمور العلمية

(٢) ما يحتاج إليه في الأمور العملية

و الأمور العلمية تعني علوم العربية من لغة و نحو و صرف ومعان و بيان و بديع و قران و حديث و خطب الخطباء و رسائل البلغاء وقصائد الشعراء و أمثال الحكماء، ثم معرفة أنساب العرب و العجم وأيامهم و وقائعهم و مفاخرهم و الوقوف على عاداتهم، و معرفة تواريخ الأمم وخاصة تاريخ الخلافة الإسلامية و نظمها و وظائفها و أحكامها و أعيادها ومواسمها، و الدول التي اشتملت عليها مع دراسة كل دولة على حدة، مع عناية خاصة بالديار المصرية، بدءا مما قبل الإسلام، يلي ذلك تتبع العصور الإسلامية التي تعاقبت عليها ابتداء من عصر الولاة فعصر الطولونيين وعصر الإخشيديين فالفاطميين فبني أيوب فعصر المماليك، ثم تأتي بعد ذلك الثقافة الجغرافية أو علم المسالك و الممالك، ثم ينص على ضرورة معرفة اللغات الأخرى غير العربية كالفارسية و الرومية "اليونانية" و السريانية والعبرية و غيرها من لغات الأمم التي لها صلة ما بدول العرب. ثم وقف

القلقشندي طويلا عند فن الوصف ، و هو فن متسع يشمل كل ما يحتاج إليه الكاتب من أوصاف الرجال و النساء و ما يشترك فيه الجنسان من الصفات، ثم أوصاف الحيوان و خاصة الخيل ، ثم يتسع في وصف الطير و سائر أنواع الوحوش التي تصيد و تصاد، ثم هنالك وصف الآلات المستخدمة في موكب الملوك و آلات الركوب و آلات السلاح والحصار و الموازين وآلات اللعب كالشطرنج و النرد. و لا غنى للكاتب من أن يعرف الأحجار الكريمة النفيسة كاللؤلؤ و الياقوت و الزمرد، و من معرفة كل حجر على حدة، كما لا غنى له عن معرفة الطيب بجميع أنواعه و الوقوف على أوصافه، أما الأمور العملية فنتخلص في معرفة الخط و آلاته معرفة أصناف الأقلام وصنعة برايتها و كيفية عمل الحبر و حل الذهب و إذابة اللازورد، ثم الكلام على نفس الخط و أصل وضعه و اختلاف الأمم فيه، و ما يختص من ذلك بالخط العربي من تنويع أقلامه التي أحدثها أئمة الكتابة و تباين أشكالها و اختلاف أوضاعها، و ما يستعمل منها في ديوان الإنشاء، و ما يلتحق بذلك من النقط و الشكل و الهجاء.... الخ.

و الكتاب بعد كل ما تقدم يبين حال اللغة العربية في عصورها المختلفة، و يبين انتشارها في البلدان المختلفة كفارس و ما وراء النهر وبلاد الروم و الهند و الصين، كما يقدم بيانا للنظم الإدارية التي سارت عليها الدول الإسلامية في بقاع الأرض، كما أنه يعد مرجعا أساسيا و موسوعة لا غنى لآثار الكتابة الديوانية منذ نشوء الدولة العربية الإسلامية إلى زمان المؤلف.

و مما يجدر ذكره قبل أن ندع الحديث في هذه الموسوعات، أنها تمثل نمازج الثقافات الإنسانية في ظلال الثقافة العربية الإسلامية، فإنك لا

تكاد تخالطها حتى تلمس آثار الثقافة الهندية و الفارسية و اليونانية ممتزجة مع الثقافة العربية، و إذا كانت آثار تلك الثقافات كانت قد تجلت في كتابات الجاحظ و التوحيدي و غيرهما من كتاب القرن الثالث و الرابع، فإنها أخصبت في موسوعات هذا العصر لضرب من التنظيم الدقيق و التقسيم المسبق، كما بنيت على ضرب في التقيد بالموضوع تقيدا يبعدها عما عرفناه من استطراد في كتب السالفين، فموسوعة اللغة - و سيرد الحديث عنها لاحقا - تحصر نفسها عند المستطاع في موضوع اللغة، و الموسوعة البلدانية تحصر نفسها في البلدانيات و كذلك موسوعة الإنشاء ... و كثر في هذه الموسوعات التبويب و التقسيم كما أشرنا مما تستدعيه طبيعة هذه الكتب الكبيرة الشاملة.

هذا مسار واحد من مسارات التأليف بعد سقوط بغداد، و هو عصر عرف في تقسيماتنا المعاصرة لتاريخ الأدب باسم عصر الانحطاط أوالانحدار، و هي تسمية اقتبست عن المستشرقين و أثارت لدى الدارسين العرب المعاصرين تساؤلات جمة، و رفضها بعضهم فأطلق على هذا العصر اسم عصر الدول المتتابعة، و بعضهم سماه "عصر الإحياء" أوحركة الإحياء. بل إن الدكتور شوقي ضيف أظهر استهجانه لمصطلح الانحطاط و الانحدار و عبر عن ذلك بقوله " و لكن كيف يكون هذا الخمود و الركود في عصر ردت إلينا فيه قوانا الحربية الضارية و سحقنا الصليبيين و المغول سحقا ذريعا" بل كيف يكون عصر خمود و جمود و فيه ازدهر التصنيف و التأليف في مجالات العلم و المعرفة، و ألفت أمهات الكتب في الثقافة العربية في شتى فنون العلم و الأدب و الحق أنه لم يكن هناك ركود و لا خمود و لا تعطل ذهني، إنما كان هناك محافظة قوية بدافع

الاحتفاظ بالشخصية العربية أمام أعدائها المغيرين خشية أن تضعف أوتضمحل أو يصيبها أي وهن من شأنه أن يؤثر على قوانا العاتية".

مما يلحق بهذه الموسوعات معجمان كبيران، و هما و إن لم يكونا موسوعة بالمعنى المعرفي لهذه الكلمة، فإنهما يعدان من أضخم الموسوعات اللغوية في العربية، و يلحقها بالموسوعات السابقة كثرة ما اشتملا عليه في ثنايا المواد اللغوية من معلومات تاريخية و جغرافية و تفسير و حديث وذكر لعادات العرب و أمثالهم و أخبارهم ... و نعني بهذين المعجمين لسان العرب و تاج العروس.

أما لسان العرب فهو لابن منظور محمد بن مكرم ، الذي سبقت الإشارة إلى ولعة باختصار الكتب الكبيرة. و لد ابن منظور في مصر عام (٦٢٠هـ/١٠٣٢م) و خدم في ديوان الإنشاء بالقاهرة، وولي قضاء طرابلس الغرب، و عاد إلى مصر و توفي فيها عام ٧١١هـ/١٢١١م و قد ترك بخطه نحو خمسمائة مجلد. كانت فكرة الموسوعة اللغوية واضحة في ذهن ابن منظور، فواضع الموسوعة لا يبقى إضافة جديدة، ولا اكتشاف مالا يكتشف، إنما يهمه جمع ما عرف و استعصاؤه و صياغته و ترتيبه في أقوم ترتيب، ليتمكن من الإفادة منه بأيسر السبل، لذلك نظر ابن منظور في الكتب المؤلفة في اللغة فاختار أغناها و أوسعها و أشملها، و أخذ مادتها و أخضعها التنسيق متبعا طريقة الإمام الجوهري في ترتيبه لمعجم الصحاح، فجاء كتابه جامعا شاملا مرتبا على أحسن ترتيب و أدقه، فجمع بين صحاح الجوهري و حواشي ابن بري (ت ٥٨٢هـ) عليه و تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري(ت ٢٧٠هـ) و محكم ابن سيده (ت ٤٥٨هـ) و النهاية في غريب الحديث و الأثر لابن الأثير الجزري (ت ٦٠٦هـ) و صرح بعد ذلك

بقوله : " و ليس لي في هذا الكتاب فضيلة امت بها، و لا وسيلة أتمسك بسببها سوى أني جمعت فيه ما تفرق في تلك الكتب من العلوم، و بسطت القول فيه، ولم أشبع باليسير، و طالب لعلم منهوم،فمن وقف فيه على صواب أو زلل أو صحة أو خلل، فعهدته على المصنف الأول، و حمده وذمه لأصله الذي عليه المعول، لأنني نقلت من كل أصل مضمونه، ولم أبدل منه شيئا فيقال : فإنما آثمة على الذين يبدلونه، بل أديت الأمانة في نقل الأصول بالفص، و ما تصرفت بكلام غير ما فيها من النص، فليعتد من ينقل عن كتابي هذا أنه ينقل عن هذه الأصول الخمسة، و ليفن عن الاهتداء بنجومها، فقد غابت لما أطلعت شمسه" و يعد كتابه اليوم، كما عد في زمانه، فهو موسوعتنا اللغوية الأساسية، و إليها نعود في كل ما يتعلق باللغة من حيث دلالتها و صرفها، كما نرجع إليها في كل شأن من شؤون الحياة العربية القديمة، لأن المؤلف نثر هذه الفوائد في ثنايا المواد اللغوية، فكان فيه الأدب و التاريخ و الأمثال و الشعر و تفسير القران و لحديث... و لم ينحله من فوائد أخر...

أما تاج العروس فهو للإمام مرتضى الزبيدي محمد بن محمد، العلامة في اللغة و الحديث و علم الرجال و الأنساب ، أصله من واسط من العراق، و مولده في الهند في بلجرام عام (١١٤٥هـ/١٧٣٢م) و نشأ في زبيد باليمن، و رحل إلى الحجاز ، و أقام بمصر، واشتهر فضله وزاد اعتقاد الناس فيه، و توفي بالطاعون في مصر سنة (١٢٠٥هـ/١٧٩٠م) و ترك عددا كبيرا من المؤلفات تربو على المائة ، من أهمها تاج العروس و شرح إحياء علوم الدين صنفه في عشر مجلدات. أما تاج العروس فقد بني على القاموس المحيط، لذلك سماه " تاج العروس في شرح جواهر القاموس"

واستوعب المؤلف في كتابه بسبب نزعة الموسوعية و خلال شرحه للقاموس عشرات الكتب الأخرى و منها لسان العرب، و يلفت نظرنا في مصادر المرتضى تنوع موضوعاتها و تباعدها، فبالإضافة إلى المراجع اللغوية كانت هناك كتب أنساب الخيل و كتب السيرة النبوية ككتاب الروض الأنف للسهيلي و كتب القراءات ككتاب الحجة لابن خالويه و كتب التفسير ومعاجم البلدان كمعجم أبي عبيد البكري، و موسوعات الأنساب ككتاب الأنساب للسمعاني و مجمع الأنساب لأبي الفداء إسماعيل بن إبراهيم البلبيسي، و كتب التعاريف و الحدود و كتب الرجال، و هي كثيرة جدا وضخمة جدا، نذكر منها على سبيل المثال طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي (ت ٧٧١هـ) و التكملة لوفيات النقلة للحافظ زكي الدين المنذري (ت ٦٥٦هـ) و تاريخ دمشق لابن عساكر (ت ٥٧١هـ) و تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (ت ٤٦٢هـ) و البداية و النهاية لابن كثير (ت ٧٧٤هـ) و تاريخ الإسلام للحافظ الذهبي (ت ٧٤٨هـ) هذا بالإضافة إلى كتب شروح الشعر و شروح المقامات و غيرها... إن استعراض مصادر تاج العروس يحتاج إلى بحث بمفرده، فقد اشتمل على لسان العرب إلى جانب اشتماله على ما ذكرناه و ما لم نذكره، و زاد على اللسان الكثير في اللغة و الجغرافية و التاريخ و أسماء الرجال من أعلام و محدثين، و جمع مادته و رتبها مما جاء في عشرات المصادر، فجاء الكتاب كما قال مؤلفه به " فجاء بحمد الله تعالى هذا الشرح واضح المنهج كثير الفائدة، سهل السلوك موصول العائدة.. عظم بحمد الله تعالى نفعه بما اشتمل عليه ، و غنى ما فيه عن غيره، و افتقر غيره إليه، و جمع من الشواهد و الأدلة ما لم يجمع مثله مثله، لأن كل واحد من العلماء انفرد بقول رواه أو سماع اداه،فصارت الفوائد في كتبهم مفرقة، و سارت أنجم الفضائل في أفلاكها، هذه مغربة

وهذه مشرقة، فجمعت منها في هذا الشرح ما تفرق و قرنت بين ما غرب منها و بين ما شرق، فانتظم شمل تلك الأصول و المواد كلها في هذا المجموع، و صار هذا بمنزلة الأصل و أولئك بمنزلة الفروع، فجاء بحمد الله تعالى وفود البغية و وفود المنية، بديع الإتقان صحيح الأركان ... و ليس لي هذا الشرح. فضيلة أمت بها، و لا وسيلة أتمسك بها سوى أنني جمعت ما تفرق في تلك الكتب من منطوق و مفهوم..." و أتى تاج العروس معلمة من معالم اللغة ، و مرجعا من مراجع الأدب و التاريخ و الرجال و الأنساب، وورد فيه من المستدركات ما يؤلف معجما قائما بنفسه، فلا عجب أن احتفل مؤلفه بإنجازه بعد أن قضى في تصنيفه أربعة عشر عاما (١١٧٤هـ- ١١٨٨ هـ) فأولم وليمة حافلة جمع فيها شيوخ العصر و طلاب العلم، فأعجبوا به و شهدوا بفضله، و كتبوا عليه التقاريظ نظما و نثرا.

هذه أهم الموسوعات الشاملة و اللغوية التي ألفت في العصر المملوكي و العثماني، على أن ما ذكرناه يجب ألا ينسينا الكتب الأخرى ذات الطابع الموسوعي الاختصاصي ككتب التاريخ الكبيرة مثل الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦هـ) و نفح الطيب للمقري (ت ١٠٤١هـ) و الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي (ت ٧٦٤هـ) وطبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي (ت ٧٧١هـ) و تاريخ ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) و كتب أصول الفقه الهامة ككتاب كشف الأسرار لعبد العزيز البخاري (ت ٧٢٠هـ/ ١٢٢٠م) وهو شرح عظيم لأصول فخر الإسلام أبي الحسن علي بن محمد بن حسين البنردوي (ت ٤٨٢هـ) و كتاب روضة الطالبين في الفقه الشافعي للإمام النووي (ت ٦٧٦هـ) و قل مثل ذلك في غيرها من موسوعات الفقه و الأحكام، و أعرض ههنا لموسوعات

النحو العربي الكبيرة التي تمثلت في الشروح المبسوطة ، و حسبي أن أشير إلى مغني اللبيب و ما ألف حوله و حول شواهده من الشروح و الحواشي، وإلى خزانة الأدب التي صنفها عبد القادر البغدادي (ت ١٠٩٢هـ) . كذلك نذكر في هذا المجال ما قدمه الإمام الشوكاني محمد بن علي (ت ١٢٥٥هـ) فقد صنف تفسيرا شاملا سماه فتح القدير ، كما صنف " السيل الجرار " في التراجم و البدر الطالع، أما موسوعته الفقهية فسماها نيل الأوطار.

و قبل أن أدع هذا الاستعراض لابد من الإشارة إلى المقريزي (ت ٨٤٥هـ) مصنف الخطط و السلوك، و إلى السيوطي (ت ٩١١هـ) الذي صنف في عدد من الفنون طائفة من المؤلفات الأساسية كالمزهر في اللغة وعلومها و الإتقان في علوم القران و الدر المنثور في التفسير بالمأثور وجمع الجوامع في شرح جمع الجوامع في النحو، و الأشباه و النظائر في النحو و غيرها و إلى ابن حجر العسقلاني و إلى الإمام القسطلاني و غيرهم من الشراح الكبار..

إن الأمر سيطول إن استرسلنا في التعداد، و ما أهملناه أصناف ما ذكرناه، فالغرض الذي نبتغيه هو إعطاء لمحة عامة عن غزارة التصنيف في شتى المجالات بعد سقوط بغداد، و أظن أن ما قدمناه أصبح كافيا. و لكن يجب أن نتوقف لنتساؤل أين المصنفات ذات الطابع الفكري و الفلسفي و ما موقعها في حركة التصنيف هذه؟

و الجواب أن حركة التصنيف الفلسفي تكاد تكون مبدوعة في هذا العصر ، فان هذه الحركة التي بلغت أوجها في القرنين الرابع و الخامس لم يتح لها أن تستمر صعدا في مسارها و تقدمها، فقد جوربت الحركات الفكرية من السلطة و من الفقهاء، و أصبح الاهتمام بالعلوم العقلية في هذا

العصر تهمة خطيرة، قال السبكي في ترجمة لكمال الدين بن يونس " فقد كان كمال الدين ابن يونس يتهم في دينه لكون العلوم العقلية غالبة عليه". وتمثل فتوى ابن الصلاح الشهرزوري (ت ٦٤٣هـ) مدخلا قائما جدا لتاريخ الفلسفة و المنطق في هذا العصر، فقد نص ابن الصلاح على أن الفلسفة تسر، و أن المنطق هو مدخل الفلسفة، و مدخل الشر تسر ، وليس الاشتغال بتعليمه و تعلمه من إباحة التسارع، و أيد أبن تيمية (ت ٧٢٨هـ) بعد ذلك هذه الفتوى و صنف كتابين، أحدهما نقض المنطق و الثاني" الرد على المنطقيين" و ذهب إلى أن المنطق علم لا ضرورة له، فهو علم لا يحتاج إليه الذكي و لا ينتفع به البليد، و تابعه السيوطي و صنف " أصول المنطق و الكلام عن فن المنطق و الكلام " متكئا على كتاب ابن تيمية. و ليس معنى هذا أن علم المنطق لم يعد له وجود، فجمهور المسلمين كانوا من الأشاعرة، و كان علم الكلام عمدة علمائهم مذهبهم يعتمد الجدل، و المنطق أداة من أدواته " و تأثير المنطق كان أعمق و أرسخ من أن يستطيع التخلص من سيطرته أحد من المشتغلين بمسائل الفكر و العلم مهما اختلفت اتجاهاتهم الفكرية" و لكن من الجدير بالذكر هنا أن المنطق الذي كان يدرس في هذا العصر هو المنطق الذي تشكل على أيدي المتأخرين بعد أن غيروا من اصطلاحه و أبقوا منه على ما يناسبهم و يحتاجون إليه، قال ابن خلدون " فتكلموا في القياس من حيث انتاجه للمطالب على العموم لا بحسب مادة، وحذفوا النظر فيه بحسب المادة، و هي الكتب الخمسة : البرهان و الجدل والخطابة و الشعر و السفسطة، و ربما يلم بعضهم باليسير منها إلماما وأغفلوها كأن لم تكن و هي المهم المعتمدة في هذا الفن" و يمكننا أن نزيد قول ابن خلدون إيضاحا بتعقيب حسين مروة موضحا ما حصل على أيدي المتأخرين " فقد عمدوا إلى عزل منطق ارسطو عن دلالته المضمونية، أي

مادته المعرفية، و حصروه في جانب وحيد هو الجانب الشكلي الصرف" و لم يزدهر الدرس الفلسفي في هذا العصر، فالاتجاه الديني كانت له السيادة، و كان مضادا للفكر الفلسفي، و الدولة كانت تحارب هذا الفكر أيضا ، و أسماء المتفلسفية التي عرفناها من ذلك العصر، نسبت إلى التعمق في علوم الأوائل دون أن تنسب إلى الإبداع في جو كله عداء، و يكفي أن نذكر قول الإمام الذهبي لندرك مدى العداء لهذه العلوم و أصحابها، قال : " و ما دواء هذه العلوم و علمائها القائمين بها علما و عملا إلا التحريق و الإعدام من الوجود."

و لا بد لنا من التعريج على التصوف الذي اشتد عوده، و نما و انتشر انتشارا واسعا، و نمت منه حركة تصنيف واسعة في العصرين المملوكي و العثماني و يكفي أن نشير إلى المرتضى الزبيدي و شرحه إحياء علوم الدين شرحا مبسوطا، و إلى مؤلفات الشيخ عبد الغني النابلسي (ت ١١٤٢هـ) و إلى حكم ابن عطاء الله السكندري (ت ٧٠٩هـ) صاحب كتاب الحكم العطائية و شروحه و إلى عبد الوهاب الشعراني (ت ٩٧٣هـ) صاحب المصنفات الصوفية الكثيرة التي لا تزال متداولة حتى يومنا هذا ...

و قد نشط التصنيف في الجغرافية و يقدم لنا في هذا المجال إغناطيوسي كراتشكوفسكي (ت ١٩٥١م) في كتابه "تاريخ الأدب الجغرافي" معلومات قيمة عن حركة التأليف في هذا الفن، فهناك كتب الرحلات و كتب البلدانيات و كتب الملاحة و أعلام هذا الفن كثر منهم ابن دقماق و المقريزي و ابن إياس و العيني و غيرهم.

إن الأمر لن ينتهي إذا أردنا أن نقف أو نمر بكل علم من العلوم، أو نذكر أهم مصنفاته، فهناك علم الفلاحة و الفلك و الطب و الفقه بمختلف

مذاهبه و كتب العقائد و غير ذلك، و أعتقد أن ما قدم حتى الآن يستطيع أن يسهم في تكوين فكرة مفادها أن حركة التصنيف عند العرب لم تتوقف بسقوط بغداد، بل نشطت و نمت و صنفت المراجع الموسوعية الأساسية بالإضافة إلى عشرات الحواشي و كتب الأدب و المختارات و المعاجم مما لا يزال معتمدنا في المراجعة إلى اليوم.

و بعد : فما قيمة هذا التراث الذي صنف بعد سقوط بغداد؟ أ صحيح أنه تكرار ليس فيه ابتكار و إنما هو تعويض عما تلف و ضاع؟ أ هو مجرد ركام من المعلومات قدمت مرتبة منسقة؟ إن الباحثين في ذلك القرون من معاصرينا يختلف رأي أحدهم عن الأخر اختلافا كبيرا، و سنقدم خلاصة عن آرائهم محاولة للوصول إلى تصوير معين. فالعلامة الشيخ محمد أبوزهره يرى أن هذه القرون (السادس و السابع و الثامن...) " امتازت بكثرة العلم لا بكثرة الفكر، فقد كانت المعلومات كثيرة جدا، و تحصيلها كان بقدر عظيم، و عكوف الناس عليها كان كبيرا، و لكن التفكير المطلق في مصادرها و مواردها و المقايسة بين صحيح الآراء و سقيمها مقايسة حرة من التعصب الفكري و التعبير المذهبي لم يكن بقدر يتناسب مع تلك الثروة المترية التي توارثها الأجيال، فقد كانوا يتلقونها و سيحتفظون عليها، و لكن لا يقدرونها حق قدرها بالنظر الفاحص المجرد، أو النظر الذي يعم كل الجوانب و لا ينحاز إلى جانب من الجوانب، و ينظر من زاويته دون سواه". و نجد على الضفة الأخرى من ضفاف البحث رأيا آخر إن لم يكن مضادا كل التضاد فهو مختلف تمام الاختلاف، فالدكتور حسن حنفي يرى "أن البحث التقريري نوع لم يعرفه تراثنا بل إن الشروح و الملحقات ذاتها لم تكن مجرد جمع مادة أو إسقاط أخرى، بل كانت محاولات فلسفية تزيد

من نطاق التحليل الفيلي و بيان أسسها النظرية، هذه هو الشرح، أو أن تركز على الأفكار الأساسية التي تبرز من خلال التحليلات و البراهين ... و هذا هو التلخيص."

و الموازنة بين الرأيين تقتضي مراجعة عينات و نماذج من التراث المختلف بشأنه، و تستلزم النظر فيه لنرى أ كان تكرارا أم محاولة فلسفية لزيادة نطاف التحليل، و لدى المراجعة نجد ذلك التراث يعطيك ذلك كله، فهناك من المصنفات مما ليس فيها إلا الجمع و التكرار حقا، حتى الترتيب قد لا تجده فيها، و هناك من المصنفات ما ليس فيه جديد إطلاقا سوى الترتيب و التنسيق ككتاب نهاية الأرب مثلا. و أكد هناك من كتب ذلك العصر ما اشتمل على دقة النظر و براعة التحليل و ذكاء المحاكمة كشروح النحو الموسعة و كالحواشي و الشروح التي صنفت حول كتاب المواقف لعضد الدين الألجي كحواشي عبد الحليم السيالكوتي، وكالحواشي التي ألفت في أصول الفقه.. و لكنك لن تجد هذا في كل حاشية أو شرح كما ذهب الدكتور حنفي. و الحقيقة التي تبدو ظاهرة للمتأمل أن عنصر الإبداع المحض، أو لنقل الإبداع الغالب كان ضئيلا و ضعيفا، فعصور المحافظة تميل إلى الركون و الوقوف، و تفضل اجترار الماضي لأنها عاجزة عن إبداع ما يملأ الحاضر و يطل على المستقبل. و إذا كان عنصر المحافظة قد كان معلم قوة في الشخصية العربية جعلها تتصدى للغارات الماحقة، و حفظ للأمة شخصيتها في وجه قوي البغي و العدوان، فإنه ما لبث أن انقلب إلى عنصر ضعف و أسهم في إغراق الحاضر بالماضي، و انكفأ الشرق على نفسه. يردد ما قاله الأقدمون، و هو في عزلة عما يجري في الغرب و على

مسافة قريبة منه، حيث انتقلت ثمرات حضارته إليهم و بدأت تتفاعل في مجتمعات جديدة لتكون حضارية جديدة غازية.

و حركة التصنيف في كل عصر لا يمكنها إلا أن تكون مرآة للعصر و ملبية لحاجاته، فإذا نبغ مصنف و سبق عصره في إبداعه، و كان العشير عصر محافظة، لم يلق إبداعه الرعاية و القبول، لأنه غرس في غير تربته و غير أوانه، و من هنا لم يكن لمفكر كبير كابن خلدون صاحب المقدمة من أثر في عصره، و في حركة التصنيف، بل إن أهمية ستبرز بعد ذلك وسيعرفه الأوروبيون قبل أن يعرفه العرب.

و لا بد أن نذكر في النهاية أن حركة التصنيف الواسعة التي تحدثنا عنها إنما كانت في أوساط العلماء و طلبة العلم و المؤسسات العلمية كالمدارس، و لم تكن ذات صبغة عامة، فليس هناك طباعة نشر الكتب، وليست أحوال الناس بالحسنة حتى تدفعهم لاستنساخ تلك المؤلفات، بل إن الجهل العام هو الأشيع، ذلك الجهل الذي انتشر ثم انتشر حتى وصل حال الناس إلى ما هو عليه في العصر العثماني، و يجب ألا ننسى أن الطباعة لم تدخل بلادنا إلا بعد عام ١٨٢٠ و على نحو شبه فاعل، و لعل ما آل إليه أمر الناس من جهل ما صار إليه و أمر الدولة من صنف هو الذي شجع أن يطلق على هذا العصر اسم الانحطاط أو الانحدار على الرغم من نشاط حركة التصنيف، فقد كانت حركة العلم في عزلة أو شبه عزلة عما يجري حولها، و كانت في عزلة تامة عما يجري في العالم.

و بعد فإني أمل أن أكون بعد أن قدمت ما قدمت بإيجاز، قد رسمت صورة لها حظا من الوضوح، و حظ أخر من العمق، لعصر امتد عدة قرون، و ظهر فيه عشرات الشعراء و العلماء و المؤرخين و الفقهاء و

الرحالة... كلهم عني بالتصنيف و تأليف الرسائل و الكتب و جمع الفتاوى و تأليف الطبقات مما يحتاج كل جانب منه إلى بحث مطول خاص.

مراجع البحث:

- ابن تيمية : حياته و عصره، آراؤه و فقهه، محمد أبو زهرة، القاهرة ، دار الفكر العربي ١٩٥٨ م

- ابن تيمية، محمد يوسف موسى - المؤسسة المصرية - أعلام العرب رقم ١٩٦٢/٥م

- الأعلام، خير الدين الزركلي ط ٣

- البحث الأدبي ، د/ شوقي ضيف، دار المعارف بمصر

- تاج العروس، المرتضى الزبيدي، ط، الكويت ١٩٦٦

- تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٧م

- تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون

- تاريخ الأدب الجغرافي : اغناطيوسي كراتشكو فسكي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، ١٩٦٥

- تاريخ الشعوب الإسلامية: كارل بروكلمان، ترجمة نبيه اميد فارسي ومنير بعلبكي، دار العلم للملايين، ١٩٧٧

- تراث الإنسانية/ مجلة دورية ، القاهرة

- التراث و التجديد: د/ حسن حنفي - بيروت ١٩٨١

- التصوف الإسلامي و أثره في الأدب و الأخلاق، د/ زكي مبارك، مصر ١٩٥٤

- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء : القلقشندي، دار الكتب المصرية

- طبقات الشافعية الكبرى : تاج الدين السبكي، المطبعة الحسينية بالقاهرة ١٣٢٤هـ

- علم الفلك، تاريخه عند العرب في القرون الوسطى، كارلو نالينو روما ١٩١١م

- القلقشندي في كتابه صبح الأعشى، د. عبد اللطيف حمزة، القاهرة ١٩٦٤

- كشف الظنون عن أسامي الكتب و الفنون: حاجي خليفة - مكتبة المثنى، بغداد

- لسان العرب: ابن منظور ط دار صادر ، بيروت

- المزهر في علوم اللغة، السيوطي، محمد أحمد جاد المولى و رفاقه، ط، القاهرة

- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، المطبعة الخيرية، القاهرة ١٣٢٢هـ

- النزعات المادية في الفلسفة الإسلامية، حسين مروة، دار الفارابي، بيروت ١٩٨٠م

نهاية الأرب، شهاب الدين النويري، دار الكتب المصرية

المساهمون في هذا العدد

١. **د / محمد ثناء الله الندوي:** أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية و آدابها، جامعة علي كره الإسلامية، علي كره

٢. **وليد كاصد الزيدي:** كاتب و مترجم ـ العراق

٣. **د/ أحمد محمد أحمد:** أستاذ اللغة الأردية، جامعة الأزهر، القاهرة، مصر

٤. **البروفيسور س. ضياء الحسن الندوي:** عميد كلية اللغات والعلوم الإنسانية و أستاذ اللغة العربية بالجامعة الملية الإسلامية، نيو دلهي و رئيس تحرير المجلة

٥. **محمد عارف حسين:** باحث في قسم اللغة العربية و آدابها، جامعة علي كره الإسلامية، علي كره.

٦. **أ.د. محمد راشد الندوي:** رئيس قسم اللغة العربية سابقا، جامعة علي كره الإسلامية، علي كره.

- **د/ السيد احسان الله خان الندوي** ـ باحث في قسم اللغة العربية

وأدابها، جامعة علي كره الإسلامية، علي كره

٧.**العلامة شبلي النعماني:** كاتب إسلامي

د/ ولي أختر الندوي: أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية، جامعة دلهي

٨.**محمد قطب الدين الندوي:** باحث في مركز الدراسات العربية والأفريقية، جامعة جواهر لال نهرو، نيو دلهي

٩.**د/ رشيد الدين خان:** كاتب بارز هندي

أ.د. شيث محمد إسماعيل الاعظمي: رئيس قسم الدراسات الإسلامية، الجامعة الملية الإسلامية، نيو دلهي

١٠.**د/ عبد الإله نبهان:** كاتب شهير، حمص، سورية

THAQAFAT-UL-HIND : Statement of ownership and other particulars.

FORM IV
(See Rule 8)

1.	Place of Publication	:	Indian Council for Cultural Relations, Azad Bhavan, Indraprastha Estate, New Delhi-110 002
2.	Periodicity of its Publication	:	Quarterly
3.	Printer's Name	:	Mrs. Suryakanthi Tripathi
	Whether citizen of India?	:	Yes
	Address	:	Director-General, Indian Council for Cultural Relations, Azad Bhavan, Indraprastha Estate, New Delhi-110 002
4.	Publisher's Name	:	Mrs. Suryakanthi Tripathi
	Whether citizen of India?	:	Yes
	Address	:	Director-General, Indian Council for Cultural Relations, Azad Bhavan, Indraprastha Estate, New Delhi-110 002
5.	Editor's Name	:	S.Z.H. Nadwi
	Whether citizen of India?	:	Yes
	Address	:	Indian Council for Cultural Relations, Azad Bhavan, Indraprastha Estate, New Delhi-110 002
6.	Name and address of individuals who own the newspaper	:	Director-General Indian Council for Cultural Relations, Azad Bhavan, Indraprastha Estate, New Delhi-110 002

I, Mrs. Suryakanthi Tripathi, hereby declare that the particulars given above are true to the best of my knowledge and belief.

Dated August, 2002

Sd/- Suryakanthi Tripathi
Signature of Publisher